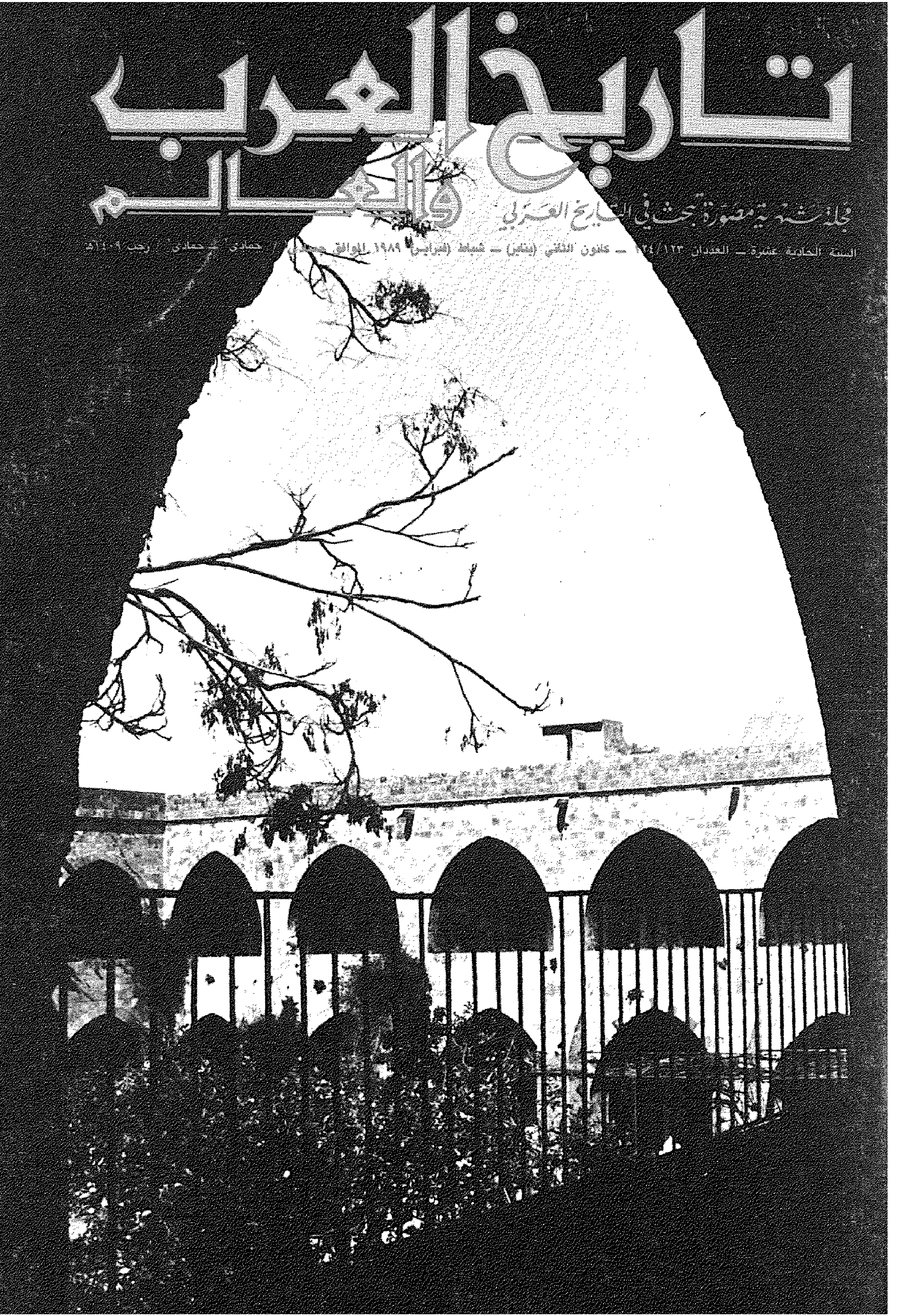
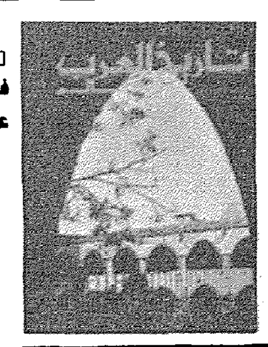


تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الحادية عشرة ـ العددان ١٢٣/١٢٤ ـ كانون الثاني (يناير) ـ شباط (فبراير) ١٩٨٩ الموافق جمادى [illegible] / جمادى [illegible] / رجب ١٤٠٩هـ

□ للسنة الثانية.. والانتفاضة مستمرة....



□ خان الافرنج، بناه الامير فخر الدين في القرن السابع عشر، صيدا.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٢٣/١٢٤ ــ كانون الثاني ــ شباط ١٩٨٩

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في كل شهرين

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
BIMONTHLY PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 15 No. 123/124 — Jan-Feb 1989

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الدروز وقضايا العرب

السفير د. حليم ابو عز الدين

في التحدث عن الدروز أسلك السبيل القومي التوحيدي الذي هو أسلوب الدروز كما هو أسلوبي الشخصي، فأتطرق إلى موضوع الدروز، لا من ناحية طائفية أو مذهبية اتخذت سبيلها لدى الكثيرين ومن جميع الطوائف والمذاهب، بل من منطلق قومي، عربي الدنيا إسلامي الدين.

وهذه هي السمة الحقيقية للدروز، فالدروز هم من صفوة العرب الذين حافظوا على تراثهم القومي وعلى نقائهم السلالي العربي. والدروز هم جند الإسلام المرابطون على هذه الثغور العربية منذ أن دعاهم الخلفاء الأوائل في صدر الإسلام للمرابطة عليها.

ومع أننا لسنا هنا في وارد البحث في تاريخ الدروز فذلك يعود إلى موضوع آخر، إلا أننا لا بد أن ننطلق في بحثنا عن «الدروز وقضايا العرب» بتبيان أصولهم العربية الصحيحة.

وأتذكر، بل أذكر، في هذا الصدد، رسالة المؤرخ سليمان أبو عز الدين رداً على رسالة للدكتور فيليب حتي ذكر الأخير فيها «إن الدروز مؤلفون من من عناصر فارسية وعراقية وعربية تسلطت عليها مؤثرات فارسية». وجاء في رده الذي نشرته كبرى المجلات العربية في حينه ـ المقتطف ـ ما يلي: «الدروز عريقون في العروبة، كما أنه من المشهور عندهم أن أكثرهم ينتسبون إلى قبائل تنوخ التي ارتحلت من الحيرة في العراق إلى معرّة النعمان في الديار الحلبية بعدما أوقع كسرى أبرويز بالنعمان ابن المنذر ملك الحيرة، وما عقب ذلك من الكوائن بين الفرس والعرب. ثم ارتحل فريق منهم من المعرّة إلى جبل لبنان ووادي التيم في أوائل القرن الثالث للهجرة، وبقي فريق آخر في المعرّة أشار إليه القلقشندي في «صبح الأعشى» حيث قال «ولتنوخ بقايا في المعرّة في بلاد الشام. أما إدخال أفخاذ من القحطانيين من اليمن إلى البحرين واتحاد قبائلهم هناك حيث أطلق عليهم اسم «تنوخ» ثم انتقالهم من البحرين إلى الحيرة وتأسيس مملكة عربية تولى أمرها آل تنوخ ثم آل نصر اللخميين فأمره مشهور».

ويستطرد المؤرخ فيقول: «إن ما يعتمد عليه الدروز في أنسابهم فهو:

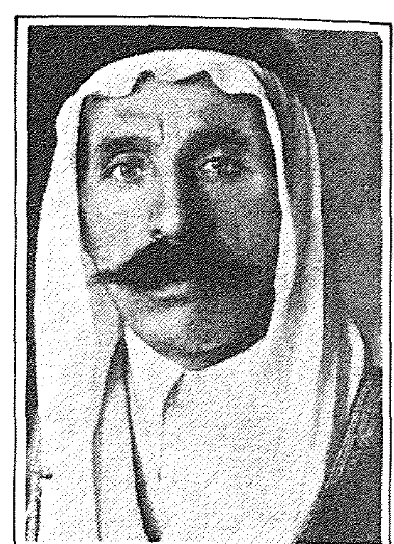
أولاً: الروايات الشفوية المتواترة على ألسنتهم خلفاً عن سلف.

ثانياً: ما لديهم من المخطوطات التي تؤيد الروايات الشفوية.

ثالثاً: عدا عما هو معروف الآن من أن أسماء الدروز إلا القليل منها عربية.

رابعاً: إن الدروز من أصح الفروع العربية لفظاً لبعض الحروف الهجائية، أي الثاء، والذال والظاء والقاف.

خامساً: نتائج الدراسات والانثروبولوجية والفسيولوجية التي قام بها أساتذة في الجامعة الأميركية في بيروت في حينه أظهرت أن جماجم الدروز ودمائهم من الصنف العربي الصحيح».



□ سلطان باشا الأطرش.





□ الأمير شكيب أرسلان.

□ كمال جنبلاط.

أما الأمير شكيب أرسلان فيقول في الدروز: «الدروز في النسب عرب أقحاح لا يوجد من العرب الحاليين في جزيرة العرب أصح عروبة منهم ونستدل على ذلك بما يلي:

أولاً: من سمتهم العربية الصرفة وتشابه بعضهم لبعض إذ لا يوجد قبيل يشبه بعضه بعضاً مثل الدروز. وكان أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده، رحمه الله كثيراً ما يفضي إلي بعجبه من شدة هذا التشابه فيقول لي: إذا رأيت الرجل المعروفي فكأنك رأيتهم جميعاً.

ثانياً: من نقاوة لغتهم العربية وإخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة فلا نجد في الخارج من جزيرة العرب من يتكلم العربية مثل الدروز، ولا من يتلفظ بالعربية مثل الدروز، وأن المرأة منهم تسوق الحديث بعبارة إن لم تكن معربة فهي فصيحة صريحة متينة مستعملة فيها الكلمات بالمعاني التي وضعت لها. فتجدها أصح لغة من الرجل العالم من غيرهم. والفصاحة التي اشتهر بها الدروز، رجالاً ونساءً آتية من كونهم عرباً.

ثالثاً: التواريخ التي عند الدروز والتي عند الطوائف الأخرى المساكنة لهم في جبل لبنان متفقة على كونهم أبناء اثنتي عشرة قبيلة عربية هاجروا من ديار حلب إلى لبنان في أوائل عهد العباسيين. ولا تزال منهم بقية في الجبل الأعلى بجهات حلب. وهذه القبائل كانت في معرّة النعمان منذ أوائل الفتح العربي. ثم أن التواتر فيما بينهم، المأثور من الخلف عن السلف يؤيد هذه التواريخ المكتوبة.

رابعاً: أنهم كانوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمة السبعة وهم فرقة من الشيعة.

فلما كانت الدعوة الفاطمية وتلقاها بعض الشيعة فكان منهم الإسماعيليون وكان منهم الدروز، انقسمت بعض العائلات إلى قسمين، منهم من بقي على التشيع الأصلي، ومنهم من غلا غلو الفاطميين. ولكن هذه العائلات التي أصلها واحد معروف كثير منها إلى هذا اليوم. وهم يعرفون أنهم أقارب وهؤلاء دروز وأولئك شيعة. وكذلك موجودة قرابات عصبية بين كثير من الدروز والمسلمين السنيين ويدل على ذلك أنهم منذ تسعماية سنة أي منذ وقع الانشقاق في الشجرة الواحدة ــ لا يزال بعضهم يعرف بعضاً. ولا يوجد حفظ الأنساب إلى هذا الحد مع تعاقب القرون العديدة إلا عند العرب.

خامساً: في الدروز أنفسهم بطون وأفخاذ معروفة الأنساب إلى قبائل العرب، هذا إلى لخم، وذاك إلى طي، وأناس إلى تميم وأناس إلى كلب، ومنهم من دُرست سلالاتهم بأقاربه من القبائل، ومنهم من لا تزال معروفة» انتهى.

وأضيف إلى ما ذكرناه من أقوال الأمير شكيب أرسلان والمؤرخ سليمان أبو عز الدين أنه بسبب تمسك الدروز بأصلهم فقد ساروا على خطة حصر التزاوج فيما بينهم محافظة على نقاء

الأصول.

وحديثي عن عروبة الدروز هو، في الواقع، منطلق لقراءة الصفحات البيضاء التي خطها الدروز في سفر الأمجاد العربية، وفي ميادين العمل القومي من أجل قضايا العرب، وحرمات الإسلام.

فمنذ أن أوفد الخلفاء الأوائل بعض القبائل العربية من الجزيرة العربية والعراق إلى الديار الشامية لترابط على تخوم الدولة العربية الإسلامية الناشئة، وتقيم أجنادها فيها لتحمي ثغورها من غزوات الأروام وغيرهم، وهذه القبائل التي نزلت في وادي التيم وسواحل الشام في سوريا ولبنان وشمالاً حتى حلب تقوم على حراسة الحدود.

بين هذه القبائل قامت «الدرزية» عندما استجاب البعض منها إلى الدعوة الفاطمية الحاكمية، في أوائل القرن الخامس الهجري — الحادي عشر الميلادي.

هؤلاء المستجيبون — الدروز — ثابروا على أداء مهامهم في حراسة الثغور العربية الإسلامية. بل وكأن استجابتهم للدعوة أعطتهم دفعاً جديداً للقيام بواجبهم تجاه العروبة والإسلام. وتزامن نشر الدعوة الدرزية وتركيزها في بعض المناطق مع قدوم الحملات الصليبية إلى هذه الديار.

وكانت السلطة الإسلامية في تلك المرحلة، على قدر من الضعف تتشارك فيه كل الدول الإسلامية القائمة آنذاك. من عباسية وفاطمية وسلجوقية. ضعف امتد حتى الأندلس.

وهبّ الدروز من مناطق انتشارهم — أي في وادي التيم وسواحل الشام وأعالي حلب — هبوا لمقارعة الغزاة الصليبيين. وكان التنوخيون ومنهم البحتريون والأرسلانيون، يرابطون على الجبال المشرفة على بيروت ولكن وبسبب ضعف الدولة الفاطمية التي كانوا ينتمون إليها، لم تتمكن القوات الإسلامية من صد الغزو الصليبي. على أن التنوخيين ظلوا، على قلة عددهم يقاومون امتداد الغزاة وفي واقعة «عين التينة» جنوبي بيروت انتصر البحتريون الدروز على الفرنجة. وغدر الصليبيون، فيما بعد، بالأمراء التنوخيين، ولكن الدروز تمكنوا بمساعدة السلطان صلاح الدين الأيوبي من الثأر منهم.

ويقول المؤرخ كمال الصليبي في كتابه «منطلق تاريخ لبنان» بالحرف: «وكان الجهاد الناجح ضد الفرنجة في فترة الحروب الصليبية قد اقتصر على الدول السنية وحلفائها من الباطنية (الدروز) في وادي التيم، ثم من الدروز في جبل بيروت» انتهى.

ومع انتقال المنطقة من حكم المماليك إلى حكم العثمانيين في أوائل القرن السادس عشر انتقل الحكم بين الدروز من التنوخيين إلى المعنيين. وكان المعنيون، المنتمون إلى قبيلة «ربيعة» العربية، والنازلون في شمالي سوريا قد حاربوا الصليبيين هناك قبل أن ينتقلوا، وبطلب من المماليك، إلى البقاع ومن ثم إلى الجبل الدرزي حيث نزلوا لدى الأمراء التنوخيين ليساندوهم في صد الغزوة الصليبية. وما لبثوا أن خلفوا التنوخيين في الإمارة، وثبت الفاتح العثماني السلطان سليم الأول حكمهم على البلاد. وتناسب المعنيون مع التنوخيين الدروز وكذلك مع الشهابيين السنّة، واشتركوا جميعاً في قتال الصليبيين.

وكعهدهم الدائم في الآباء كان الدروز أول من اصطدم مع الحكم العثماني الجديد عندما اتهموا زوراً بالتعرض، قرب جون عكار، لفرقة من الجنود الأتراك كانت تواكب عملية نقل الخزنة السلطانية إلى استانبول. وهذا الحادث جرى خارج نطاق حكم المعنيين، ولكن الدسائس ألصقت بهم المسؤولية. وجردت السلطة العثمانية حملة كبيرة غدرت بهم عندما دعي قادتهم لمقابلة القائد العثماني في عين صوفر فجاؤوها وهم عزّل من السلاح ليفاجأوا بمذبحة نكراء قام بها القائد العثماني وجنوده.

كانت تلك الواقعة الغادرة بداية عهد عثماني ساده الجور والظلم والجهل وقابله الدروز بالمجابهة والتمرد والثورة. حتى لقد كان العهد العثماني في بلاد الشام عهد ثورات متلاحقة قام بها الدروز في الجبلين: جبل الدروز أي جبل لبنان، وجبل العرب في حوران ضد الحكم العثماني.

وساد خلال حكم المعنيين العدل العربي مقابل الجور التركي، وعمّ التسامح أرجاء

البلاد. وامتد حكم فخر الدين المعني الثاني على أكثر بلاد الشام وأطلق عليه لقب سلطان البر. وثبته السلطان حاكماً على عربستان من حد حلب إلى حد القدس كما جاء في تاريخ الخالدي.

وفي عهد فخر الدين، ومنذ ذلك العهد، انتقل الكثير من المسيحيين وأكثرهم من الموارنة — من شمالي لبنان إلى وسطه وجنوبه حيث نزلوا في أراضي الدروز وعملوا فيها وتمتعوا بكل مزايا العدل والتسامح. وأقطعهم المعنيون والجنبلاطيون والعماديون والنكديون والتلاحقة وغيرهم من مناصب الدروز الأراضي، وبنوا لهم الأديرة والكنائس.

ومثل الحكمان التنوخي والمعني عدل العرب وسماحة الإسلام في التعامل مع المواطنيين المسيحيين.

وانقرض الحكم المعني في آخر القرن السابع عشر بوفاة الأمير أحمد المعني بدون عقب، فاختار عُقال الدروز وزعماؤهم الأمير الشهابي السني حيدر حفيد الأمير أحمد المعني، من أمراء وادي التيم أميراً. وانتقل الحكم من المعنيين الدروز إلى الشهابيين السنة بمبادرة من الدروز وبموافقة عامة منهم، وبدون أن يثير الأمر أية حساسية. وهكذا كنا قبل استفحال الطائفية السياسية، فأين أصبحنا بعدها!

سار الشهابيون في البدء على خطى أسلافهم المعنيين ولكن الدسائس المحلية والأجنبية ما لبثت أن بدأت تذر قرنها. فقد كانت السلطنة العثمانية بدأت عهد الانحدار، وبدأ الغرب المسيحي يتطلع إلى وراثة تركة «الرجل المريض» وتدفقت البعثات والإرساليات الدينية الأوروبية على هذه المنطقة تبذر التفرقة وتزكي الخلاف. وبدأت ريح الطائفية السياسية تهب، وأدى ذلك إلى تنصر بعض الأمراء الشهابيين المسلمين استجابة لدعوات أطلقها الغربيون وأنصارهم. وحدث ذلك في قلب السلطنة العثمانية المسلمة. فتنصر الحكام الشهابيون السنيون في ظل الخلافة الإسلامية، وتبعهم أنسباؤهم اللمعيون الدروز، وبقوا في سدّة الحكم بدون أن يطالهم عقاب الردة. وإن دلّ ذلك على شيء فعلى تسامح الإسلام. ومع ذلك يتهمون الإسلام بالتعصب!

من هنا بدأت سموم الطائفية تنتشر في البلاد لتقضي عليها. فقد كان الحكم على عهد التنوخيين والمعنيين، وفي مطلع العهد الشهابي وطنياً، غير طائفي. كان الأمير درزياً أو سنياً، ولكنه كان متسامحاً يساوي في أحكامه وفي المعاملة بين جميع الفئات. كان الدين لله والوطن للجميع.

وأصبح الوضع بعد أن تفشت الطائفية السياسية أن الدين للاستغلال، والوطن للطائفة. فما أوضح الفرق بين العهدين!

وفي أواخر العهد الشهابي ثار الدروز كعادتهم ضد الطغيان. ثاروا ضد الأمير الشهابي، وثاروا ضد المحتل إبراهيم باشا. وحاول الفريقان الشهابي وإبراهيم باشا نزع سلاح الدروز وتجنيدهم توطئة لضربهم. ولم يكتفيا بذلك بل عمدا إلى تسليح خصومهم. ولكن الدروز ثاروا ضد الاثنين وقارعوهما حتى نهاية الاثنين. وخلفهما عهد القائممقاميتين. ثم قامت الحركات في الجبل وأسفرت عن فرض نظام المتصرفية عليه حتى نهاية الحرب العظمى الأولى، التي قضت على الحكم العثماني في هذه البلاد.

وشاركت قوات الثورة العربية — وفيها قوات درزية — في إنهاء الحكم العثماني. وقام على أثره الحكم العربي الفيصلي في الداخل وبعض الساحل وشارك فيه الدروز مع سائر الوطنيين. وكان سلطان الأطرش أول من رفع العلم العربي على دار الحكومة في دمشق. كما عين الملك فيصل الأول الهاشمي الأمير عادل أرسلان حاكماً عسكرياً معاوناً للمنطقة العربية. وشارك الدروز في قتال الفرنسيين في ميسلون كما ثاروا مراراً على حكم الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان.

وقام الدروز عام ١٩٢٥ بثورتهم الكبرى ضد الفرنسيين وتبعهم إخوان لهم وقاتلوا الفرنسيين لمدة سنتين وأنزلوا بهم خسائر فادحة دخلت في سجلات الجيش الفرنسي العريق في أمجاده العسكرية. وزعزعت الثورة السورية الوطنية مركز فرنسا في سوريا ولبنان. واشترك الدروز في ثورات فلسطين ضد الانتداب البريطاني والاستعمار الصهيوني. ولم تقم حركة وطنية في المشرق العربي إلا واشترك الدروز فيها. وكانوا في جميع وقائعهم، والحق يقال، فرسان العرب

وسيوف الإسلام.

وأعود الآن بعد هذه اللمحة التي كان لا بد منها، أعود للتحدث عن «الدروز وقضايا العرب» وخاصة في العصر الحديث.

الدروز هم أقل العشائر العربية عدداً — ولا يوجد دروز غير عرب. ولكنهم ليسوا أقل العشائر العربية عملاً وجهاداً في سبيل العروبة والإسلام. لقد قام في هذه العشيرة رجال هم، من حيث تفانيهم في خدمة العروبة والإسلام، في سدرة المنتهى. ولا أعدو صحيح التقييم إذا ما قلت أن أعمال الدروز ومآثرهم هي، في الواقع، على تناسب عكسي مع عددهم. فهم على قلة عددهم الذي لا يصل إلى المليون الواحد، قاموا بأعمال ومآثر تتجاوز بكثير نسبتهم العددية. ولو تكلمنا عن الدروز، بذكر أعمالهم أمام مقدريهم ممن لا يعرفون بالدقة عدد الدروز لظنوا أن الدروز ملايين وملايين.

وهل أنا في حاجة لذكر أعلام الدروز؟ وهل بإمكاني أن أذكرهم جميعاً؟ كلا، فالوقت يضيق لذلك، والذاكرة قد لا تحويهم جميعاً، وحتى الكتب والسّير قد لا تستوعب جميع أصحاب الحق. فلا أقل من أن استعيض عن ذكر الكل الجدير، ولكن غير الممكن، بالبعض الممكن مع التقدير للكثيرين ممن قد لا يرد ذكرهم للأسباب المقدمة آنفاً.

وهل من يتقدم ذكره — وحتى ولو تجاوزنا نطاق الدروز — على ذكر الأمير شكيب أرسلان، أمير البيان، وإمام المسلمين المجاهدين في العصر الحديث.

هو المجاهد الأديب، الناثر والشاعر، العلاّمة، لسان العرب، وداعية الإسلام. هو منا من هذا البلد الذي يعرفه الكثيرون بأنه بلد شكيب أرسلان.

إشعاعه غطى العالمين العربي والإسلامي ووصل إلى أقاصي المعمور.

لم يكن من حظي أن أتعرف إليه شخصياً وأن أجالسه سوى مرة واحدة في بيروت عام ١٩٤٦ — ذلك أنه عاش طيلة سنواته الأخيرة مبعداً عن بلاده، عاش في جنيف وسائر أوروبا. ولكنني تعرفت إليه من كتبه وكتاباته ورسائله، وأحاديث الناس عنه.

أمضى حياته الطويلة والغنية والمثمرة في الجهاد من أجل الإسلام والعرب. جاهد بفكره وبقلمه وبسيفه، وجاهد بماله وصحته، وطبعت حياته كلها بالعمل الدائم من أجل قضايا أمته وبلاده.

عام ١٩٣٥ نشرت مجلة «الضياء» الهندية التي كانت تصدرها «ندوة العلماء المسلمين» في لاكناو في الهند، أن مجمعاً إسلامياً انعقد ذلك العام لاختيار أعظم رجل بين المسلمين الأحياء. وحضر الاجتماع عدد كبير من العلماء والأئمة والأدباء. وترددت في الاجتماع أسماء: الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، والأمير شكيب أرسلان، والسيد محمد رشيد رضا، والأمير عبد الكريم الخطابي، والسيد شريف السنوسي، ومولانا محمد علي، ومصطفى كمال أتاتورك، ومحمد رضا بهلوي. وفاز الأمير شكيب أرسلان بلقب أعظم رجال الإسلام.

ويروي الأمير عادل أرسلان في مذكراته أنه كان بصحبة شقيقه الأمير شكيب ينتظران في مرفأ مرسيليا الصعود إلى الباخرة للعودة إلى بيروت. ويقول: «وإذا بحمّالة مغاربة سمعوا كلامنا بالعربية فسلموا علينا وإذا بأحدهم وقد رأى بطاقة أخي شكيب مربوطة بإحدى الحقائب يقول من هو الأمير شكيب؟ فقلت هذا فوقع على يديه يلثمهما. فظننت أنه من برقة عرف أخي أثناء جهادها، فإذا هو من تونس. ذهب الرجل ثم عاد بخمسة من رفاقه التوانسة والجزائريين فأخذوا بلثم يدي شكيب والدعاء له، وحملوا الحقائب وشقوا لنا طريقنا وانتهى بنا المغاربة إلى مكاننا في الباخرة. وإذا بهم قد صاروا عشرين يتصايحون: الأمير أرسلان هنا. هذا هو نصيرنا. فحمّالة وعملة من فقراء المغاربة يقرأون مقالات شكيب في الدفاع عن بلادهم فيثور فيهم هذا الشعور الطيب الكريم» انتهى.

هذا هو الأمير شكيب أرسلان، صنو الملوك والرؤساء، ونصير الشغيلة والفقراء وأمير المجاهدين والأدباء.

وأتحدث عن سلطان باشا الأطرش، القائد العام للثورة السورية الوطنية، الذي نازل الأتراك الذين أعدموا والده ذوقان الأطرش غدراً، ونازل الفرنسيين وأنزل بهم الهزائم يقود جحافل الثوار

الميامين من الجبل إلى الغوطة إلى الجولان ووادي التيم. الأطرش الذي قال فيه الشاعر القروي:
«فيا لك أطرشاً لما دعينا
لثأر كنت أسمعنا جميعا»
حياته كانت سلسلة متصلة من الجهاد ضد الأتراك وضد الفرنسيين، وضد الطغيان. وسنوات طويلة عاشها منفياً في الصحراء. ولما عاد إلى سوريا المستقلة، وطنه الحر أصبحت داره في «القرية» في جبل العرب محجة للوطنيين، ومنارة للمجاهدين إلى أن وافاه القدر المحتوم. وأذكر أنني شاركت مع فريق من صحبي في مأتم الراحل الكبير. وكتبت لدى عودتي من مهرجان البطولة أقوال «أنا عائد من جبل العرب، جبل البطولة والرجولة والوفاء عائد من مهرجان فارس الجبل وكل جبل. لم أذهب إلى السويداء لحضور المأتم، ولا من المأتم عدت. ذهبت لتحية البطل الخالد سلطان الأطرش ولأستعيد النشوة القومية التي افتقدناها منذ حين. وبالنشوة عشت تلك الساعات وبالكبرياء عدت. فأنا من الجيل الذي نما على وهج بطولة سلطان وإخوان سلطان. من معينها نهل، ومن نورها استضاء، ومن تعاليمها اقتبس، وبذكرها يعتز».

وتشع علينا ذكرى أمير السيف والقلم الأمير عادل أرسلان وإشعاعها يبهر العيون.

فالأمير عادل هو الفارس العربي النبيل — هو الأديب، المفكر، والشاعر الناثر، والإداري الحازم، والمقاتل الباسل. هو المتحدث اللبق، والجليس الأنيس، والمفاوض الساحر، والحاكم العادل — عمل قائمقاماً للشوف وعضواً في مجلس المبعوثان العثماني. شارك في الثورة العربية، وعينه الملك فيصل الهاشمي لدى تحرير الشام معاوناً للحاكم العسكري العام للبلاد. وشارك في الثورة السورية الوطنية فكان القائد المغوار الذي يخوض بنفسه المعارك. وقاسى الحرمان في الصحراء، في الأزرق ووادي الرحان يقتات، وهو ربيب العز والجاه، على أعشاب الصحراء، ويقاسم رجاله شظف العيش.

لقد أغدق الله، عز وجل، على الأمير عادل من الخلائق ما عزّ نظيرها، وما قلّ أن تجمعت في شخص واحد. لقد أعطاه الله وأجزل له العطاء. كان كريم المحتد، نبيل الخلق، جميل الصورة، متين البنية، قوي الشخصية، سلس الحديث، سريع الخاطر، وكان، قبل كل ذلك سيداً لمكارم الأخلاق.

لقد كان من حظي أن تعرفت عليه وأنا في مطلع حياتي، طالباً في الحقوق في جامعة باريس، وجالسته وتعلمت منه الكثير، وأسبغ على صداقته ومودته، وحدثني عن سيرته وهو الذي دربني وشجعني على كتابة المذكرات. وأذكر أن المغفور له مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني قال لي عنه: «الأمير عادل هو رجل العرب» قال لي الحاج أمين ذلك في وقت كان فيه الكثيرون يعتبرون الحاج أمين رجل العرب.

في الأميرين الشقيقين، الأمير شكيب والأمير عادل قال الشاعر العربي الكبير الرصافي:
«لبعضهم شهرة بالسيف واحدة
وبعضهم شهرتاه السيف والقلم
كعادل وشكيب في اكفهما
جال اليراع وصال الصارم الخذم»

وأصل إلى كمال جنبلاط، وكلكم تعرفونه فهو واسطة العقد بين رجال الفكر والأدب والسياسة، وحتى السيف، وهو المعلم الألمعي البارز لصفوف العمل الوطني على صعيد التحرر والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وكمال جنبلاط بحر عُباب لا حصر لحدوده، على أنني سأقصر كلامي عنه ضمن نطاق الحديث عن قضايا العرب.

عمل كمال جنبلاط لقضايا العرب، كما عمل للبنان. كان على رأس الهيئة العربية المساندة للثورة الفلسطينية، وأدى لإخواننا الفلسطينيين مساعدات جلى في لبنان وفي دنيا العرب، ووحد بين جهود الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية، ووضعهما في خندق واحد. وكان من أقرب القادة العرب، إن لم يكن أقربهم، للرئيس العربي الخالد جمال عبد الناصر. وكانت له لدى الرئيس منزلة خاصة وكثيراً ما قال لي الرئيس عبد الناصر أن كمال جنبلاط كان من رجالات العرب الذين يقدرهم ويحترم آرائهم. ولا غرو في ذلك فكمال جنبلاط قيمة فكرية كبرى.

لقد أنشأ كمال جنبلاط مدرسة نموذجية للعمل الوطني العربي، وأنشأ جيلاً بل أجيالاً من الشباب العربي العقائدي النابه ووضع

أسلوبا متقدما ومتميزا للعمل الفكري، والادبي والسياسي. كمال جنبلاط، هو في الواقع، معلم للجيل العربي الحاضر ورائد قومي للأجيال العربية القادمة.

وأتحدث عن رشيد طليع، وقد لا يعرفه الكثيرون من الجيل الجديد، فأقول أنه كان من كبار رجال الحكم والإدارة في الديار الشامية، في العهد العثماني، وفي العهد العربي في دمشق. تقلب في مختلف المناصب الإدارية قائمقاماً ومتصرفاً. كان متصرفاً لطرابلس الشام حيث بقيت ذكراه المجيدة تفوح في تلك المدينة العزيزة وسمعت أصداءها الطيبة بنفسي عندما توليت إدارة الفيحاء. واختير فترة نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. وعمل خلال الثورة العربية الكبرى. وشارك في الحكم العربي الفيصلي في دمشق، وتولى فترة إدارة الشؤون الداخلية، وذهب والياً على حلب وبقي فيها حتى زوال الحكم العربي بعد ميسلون. وانتقل إلى جبل العرب، ومن ثم إلى الأردن حيث دعاه الأمير عبد الله الهاشمي إلى تشكيل أول حكومة عربية في الأردن، ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالمستعمر البريطاني، فاستقال وغادر الأردن إلى القدس فمصر. ولما قامت الثورة السورية سارع للانضمام إليها، وجاهد رشيد طليع مع إخوانه في الثورة، وتولى مهام قيادية رفيعة فيها. وظل يناضل حتى وافته المنية ودفن في جبل العرب.

وأتحدث عن الدكتور قاسم أبو عز الدين، وهو أيضاً غير معروف من الجيل الجديد. كان على رأس دوائر الصحة العامة في السلطنة العثمانية لفترة طويلة قام خلالها بأعمال وإصلاحات كثيرة، خاصة في ميادين الوقاية الصحية، وفي تنظيم وتركيز الحجر الصحي في الديار الإسلامية المقدسة. وانتقل من الحجاز إلى ولايات بيروت. فدمشق وحلب والعراق وإلى ولايات الأنضول وسائر أنحاء السلطنة وأنشأ أنظمة صحية حديثة لم تكن تعرفها قبل. وأصبح مشرفاً عاماً على الشؤون الصحية في السلطنة العثمانية، وممثلاً للسلطنة في المجلس الصحي الدولي. وعاد بعد الحرب العالمية الأولى إلى موطنه، حيث دعاه الملك فيصل الهاشمي إلى دمشق لتكليفه بوزارة الصحة في الحكومة العربية. ولم يكد يصل إلى دمشق حتى دخلها الفرنسيون وقوّضوا الحكم العربي فيها. وعاد إلى العبادية، ولكنه لم يستطع العيش في ظل الانتداب الفرنسي فقفل عائداً إلى استانبول حيث توفي.

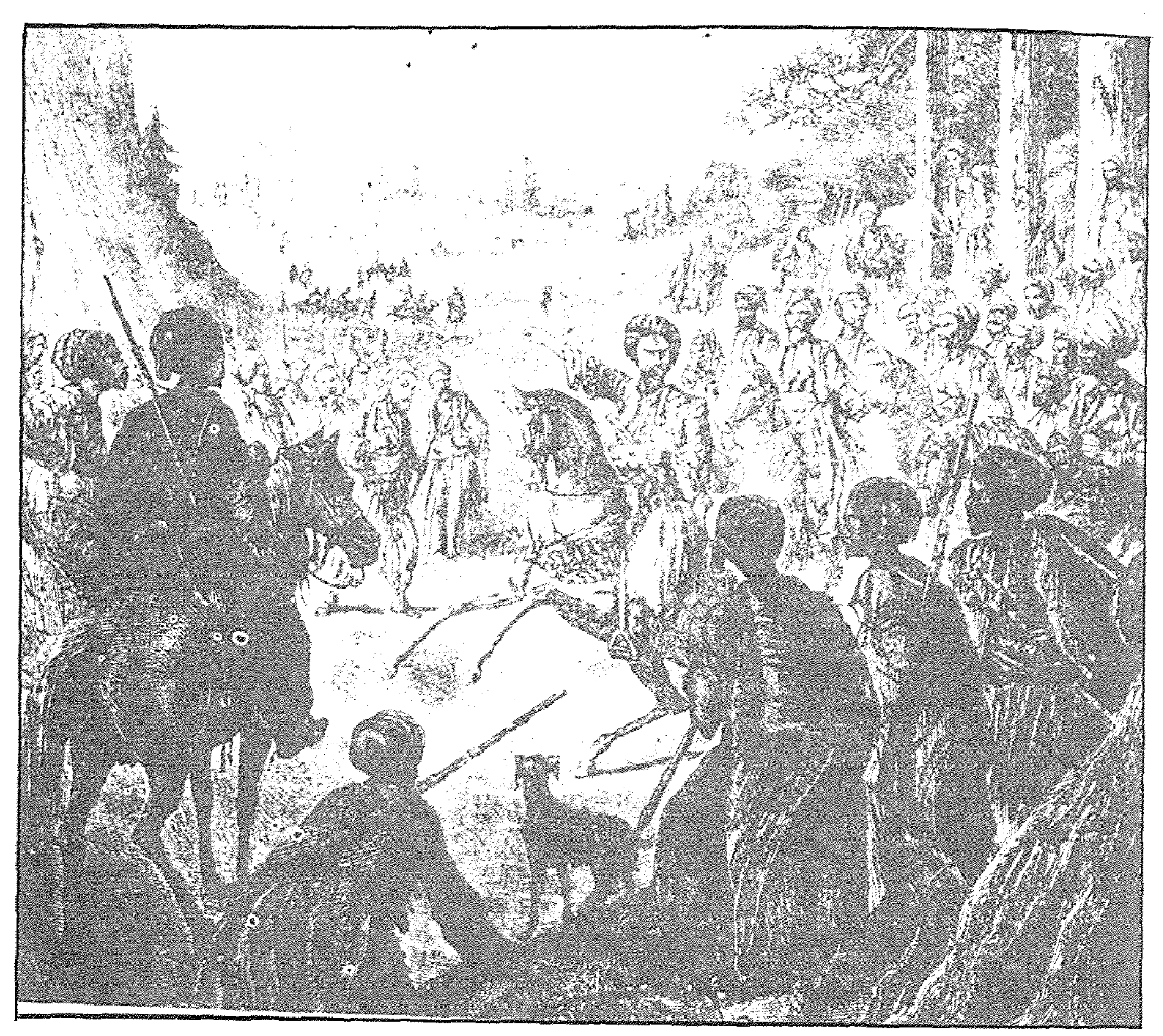
والدكتور قاسم أبو عز الدين هو والد صلاح أبو عز الدين أحد رجال الحكم العربي في دمشق وسكرتير الملك فيصل. وقد رافقه بعد ميسلون إلى بغداد.

وأتحدث عن المجاهد البطل فؤاد سليم، الفتى المعروفي الذي التحق بالثورة العربية وهو في أوائل العشرينات من عمره وقاتل الأتراك من العقبة حتى دمشق التي دخلها مع الجيش العربي. وفي دمشق عمل مع يوسف العظمة في تأسيس الجيش العربي السوري الفتي. وقاتل بجانب البطل العربي يوسف العظمة في ميسلون، وغادر دمشق لدى الاحتلال الفرنسي لها وذهب إلى الأردن حيث انضم إلى إخوانه في حزب الاستقلال العربي. وعند تشكيل الجيش العربي الأردني تولى فؤاد رئاسة الأركان فيه. ولكنه ما لبث أن اصطدم بالقيادة البريطانية، وغادر الأردن إلى مصر. ولما قامت الثورة السورية سارع إلى الانضمام إليها واشترك في معاركها، وقاد مع زيد الأطرش، شقيق سلطان، قوات الثورة في الجولان وأقليم البلان ووادي التيم.

واستشهد فؤاد في معركة مجدل شمس في الجولان. وكان بجانبه، في الجهاد حمد صعب. ودفن فؤاد في تراب مجدل شمس. وكان عمره لدى استشهاده ٣١ عاماً.

وأصل إلى النكديّين عارف وعادل، وكلاهما نور ونبراس. عارف النكدي أديب وقانوني ومصلح اجتماعي ومجاهد في سبيل الحق والعروبة. عمل في سوريا فكان مثال القاضي العادل والإداري الحازم والحاكم النزيه. وانتخب عضواً في المجمع اللغوي العربي في دمشق. وكان محافظاً لجبل العرب. وعاد إلى لبنان ليتولى إدارة الأوقاف الداودية فأنشأ بيت اليتيم الدرزي. وخلف في لبنان وسوريا أحسن الذكرى لما كان عليه من علم وخلق وتفانٍ في العمل الوطني.

وأذكر عادل النكدي الدكتور في القانون من



□ عند الحاجة كان المقاتلون يجتمعون على الفور في دير القمر (رسم غرانسير وفقاً لوصف سبول).

جامعة لوزان، والعامل الدائم لقضايا العروبة حتى الاستشهاد الذي غادر جامعته في سويسرا وعاد إلى وطنه مسرعاً للاشتراك في الثورة السورية وقاتل في معاركها واستشهد في الغوطة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره.

وأتكلم عن عجاج نويهض الأديب والمجاهد والمؤرخ والقانوني والعامل في قضايا العرب منذ قيام الحكم العربي الفيصلي في دمشق ولأكثر من ستين عاماً أمضى زهرتها في دمشق والقدس دمشق، وانتقل منها إلى فلسطين حيث عمل سكرتيراً للمجلس الإسلامي الأعلى بجانب الرئيس الحاج أمين الحسيني. وشارك في حزب الاستقلال العربي وفي تنظيم المؤتمرات العربية والإسلامية لنصرة قضية فلسطين. واعتقلته السلطات البريطانية مع رفاق قوميين له، وعمل في المحاماة وفي الصحافة وأنشأ مجلة «العرب» وانتقل بعد النكبة إلى عمان وعمل في الديوان الملكي الهاشمي وفي دوائر الإعلام. وعاد في نهاية المطاف إلى مسقط رأسه رأس المتن.

وعجاج نويهض من أكبر أدباء العرب وضع مؤلفات عديدة، ونقل إلى اللغة كتاب «حاضر العالم الإسلامي» الذي علق عليه الأمير شكيب أرسلان. وله في ميادين التأليف والكتابة والعمل القومي جولات واسعة جعلته علماً من أعلام العروبة والإسلام.

وأذكر علي ناصر الدين المجاهد العربي. أمضى حياته في العمل الدؤوب من أجل تحرير العرب

ووحدتهم. وكتب وناضل في سبيل الأهداف القومية. واعتقل ونفي مراراً بسبب آرائه الوطنية، وذاق مرارة العيش، وحتى القلة والحرمان، وتحمّل أنواع القهر من أجل عقائده الراسخة. وفي الوقت الذي وصل فيه العديد من رفاقه إلى الحكم والسلطة، بقي هو يكافح ويناضل ويعاني مرارة الخذلان حتى آخر حياته ومات كما عاش، غنياً في مبادئه وفكره وجهاده. وفقيراً في حاله وماله، معتزاً بكلا الحالتين.

واختم حديثي عن مجاهد معروفي عربي كبير قد لا يعرفه الكثيرون هنا، ولكن العروبة والإقدام والتضحية وميادين القتال كلها تعرفه، لأنه كان ابنها البار. هو المجاهد حمد صعب من الكحلونية في الشوف. عاش حياة كلها جهاد وتفان. فما قامت ثورة عربية إلا سارع إلى المشاركة فيها. قاتل في الثورة العربية الكبرى، وفي ميسلون، وفي الثورة السورية الوطنية، وفي ثورات فلسطين كلها.

شارك فوزي القاوقجي في معاركه. وانضم إلى حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١، وانتقل مع صديقه ورفيق دربه فوزي القاوقجي على رأس مجموعة من قوات المساندة العربية لثورة العراق على البريطانيين لمجابهة قوات غلوب باشا «أبو حنيك» التي دخلت العراق لتطويق الثورة. وأصيب حمد صعب في معركة قرب الرطبة في الصحراء إصابة قاتلة ودفن في رمال بادية الشام تاركاً ورائه ذكرى خالدة في الجهاد.

هذه الصفحات اللامعة من تاريخ الدروز القومي العربي والإسلامي لا يجوز أن نطويها قبل أن نشير إلى جهاد المرأة الدرزية ومشاركتها الرجل، أباً كان أو أخاً، أو زوجاً، في نضاله، وحتى في القتال. فهي تلازمه في المعركة، وتسانده، وتمده بالمؤن والذخائر، وتنخيه، وتثير رجولته وفروسيته، وينتخي الأب والأخ والزوج، ويزأر بصيحة الحرب «أنا أخوك يا سلمى، أنا أخوك يا هند» ويكر على العدو، ولا يعود من المعركة إلا منتصراً أو شهيداً.

وفيها يقول الشاعر القروي:

«ونساؤهم لو تشهدون نسائهم
في الحرب هاجمة مع الفرسان
كالماء الطف ما يكون، وانه
لأشد ما يسطو على النيران»

شاهدت أخيراً على شاشة التلفزيون العربي السوري الشقيق صداماً وقع في مجدل شمس — مثوى البطل فؤاد سليم — بين نساء درزيات — صاحبات المناديل البيض — ولفيف من رجال الشرطة الإسرائيلية المدججة بالسلاح يحيط برئيس حكومة إسرائيل السابق لحراسته خلال زيارته لمجدل شمس. شاهدت بأم عيني صاحبات المناديل البيض يندفعن نحو رجال الشرطة الإسرائيلية ويدفعنهم بقبضات أيديهن ويلقين ببعضهم على الأرض ويضربنهم ويسارع هؤلاء للإحاطة برئيس حكومتهم ويدفعون به إلى سيارة للشرطة أسرعت بتهريبه، وخاصة عندما بدأ ظهور الرجال، أصحاب العمائم البيض، وهم يتقدمون للاشتراك في المعركة.

بوركت تلك وكل المناديل البيض والعمائم البيض!

والآن،

وقد أشرفنا على نهاية الحديث عن «الدروز وقضايا العرب»، لا أقول مع الفرزدق:

«أولئك اصحابي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع»

فنحن بصدد الفخار، لا التفاخر.

ولكنني أقول مع شوقي، أمير الشعراء:

«وما كان الدروز قبيل شر
وإن أخِذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف
كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل اشم له شعاف
موارد في السحاب الجون بلقُ
لكل لبوءةٍ ولكل شبلٍ
نضالٌ دون غايته ورشقُ
كان من السموأل فيه شيئاً
فكل حياته شرف وخلقُ»

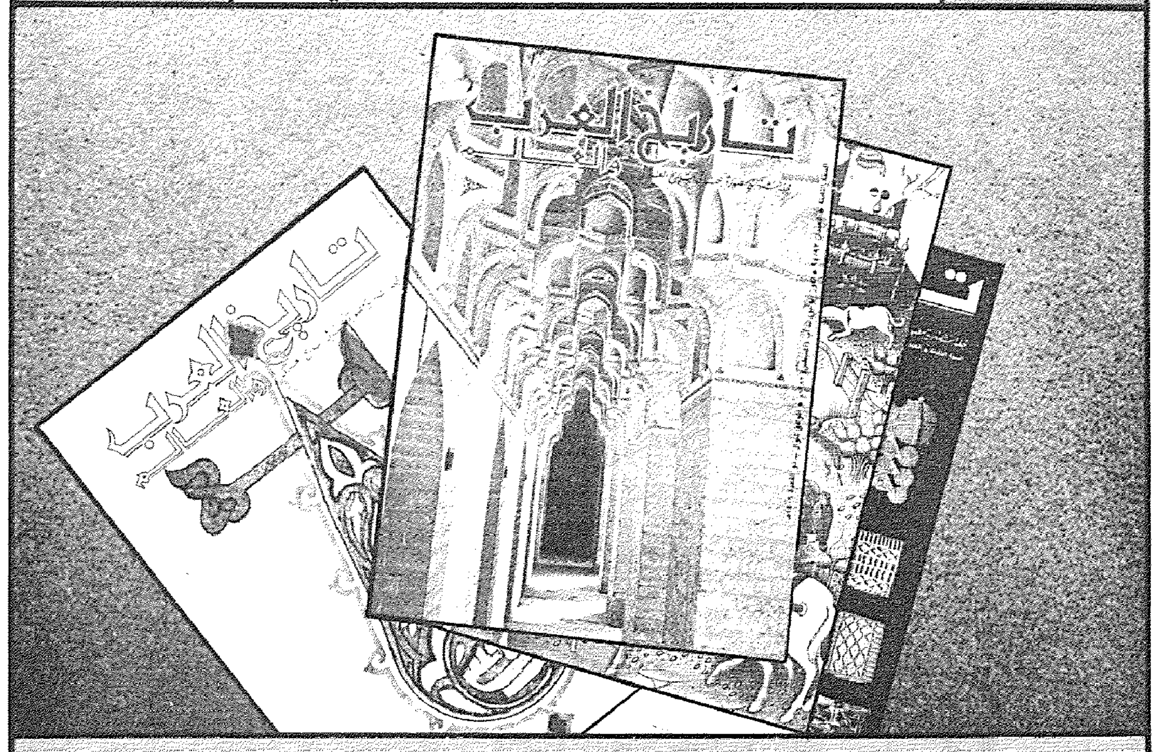


تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



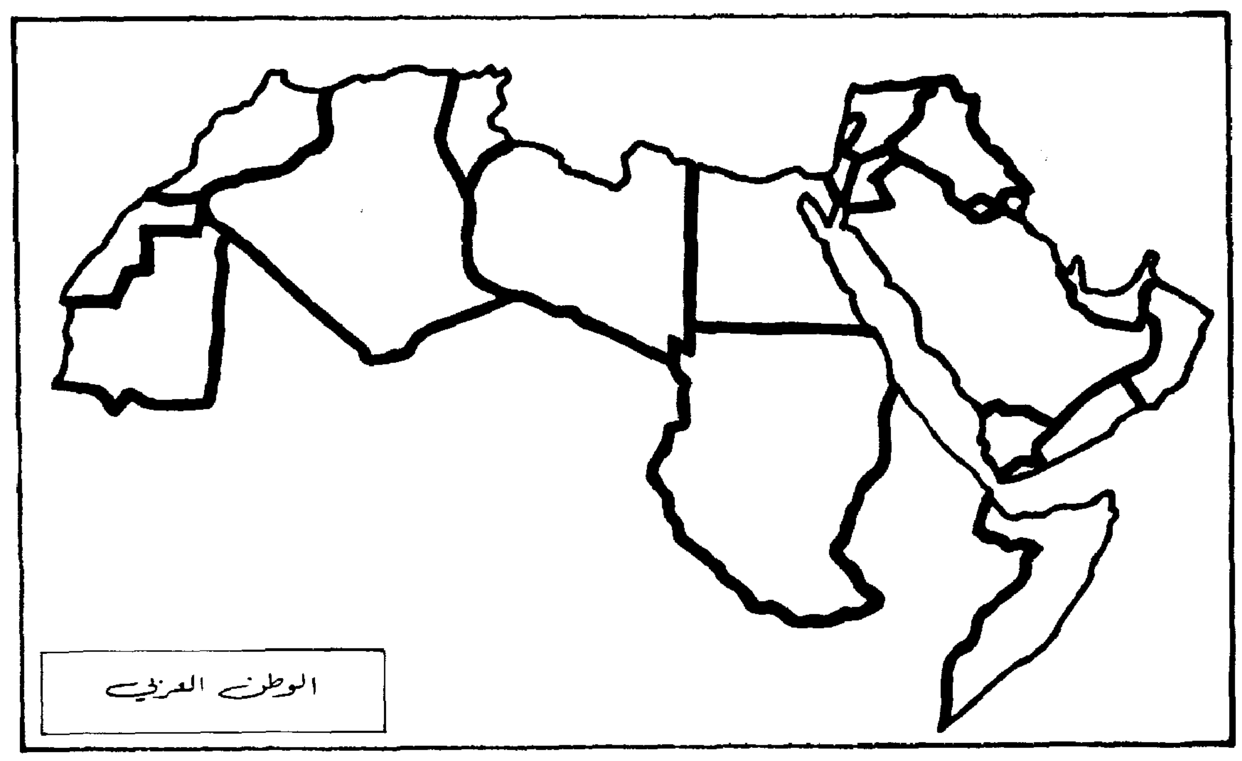
الاشتراكات

- في لبنان للأفراد .... ١٥ دولار
- للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

علي ناصر الدين في الذكرى المئوية لميلاده
قراءة جديدة
في فكر رائد القومية العربية في الثلاثينات



د. محمد شيّا
(المجلس الدرزي للبحوث والإنماء)

— ١ —

لو شئتَ الكتابة في علي ناصر الدين[١] فمن أين تبدأ؟ وبماذا تبدأ؟ أتبدأ بعلي المناضل المجاهد أم بعلي السياسي والمفكر والمنظر؟ أتبدأ سنوات المنفى وهي بواكير العصبة أم بالعصبة وهي الرد على المنفى؟ أتبدأ بعلي اللبناني أو علي الفلسطيني أو علي العروبي؟ في الحقيقة، كل البدايات مع أبي وائل[٢] تبدو صحيحة وفي محلها تماماً! أما سبب ذلك فبسيط جداً، وكما علي نفسه، وهي أنه حاضرٌ في البدايات كلها، صانعاً لبعضها، قريباً من بعضها الآخر، وشاهداً لها وعليها دائماً وفي كل الأحوال. ولذلك تماماً فإن جهاد أبي وائل وفكره ليسا في صلب ما حدث وحسب، بل إن ما حدث لا يمكن قراءته أو تأريخه دون المرور بجهاده وفكره. هو مَعلَمٌ في حقبة، بل هو الحقبة في كل ما فيها وقد تجسّدت في رجل.

[] د. محمد شيّا مدير معهد العلوم الاجتماعية ــ الجامعة اللبنانية ــ الفرع الأول.



ولكن أيكون ما أقوله في علي ناصر الدين كثيراً؟ إذا بدا الأمر كذلك فإني لا أجد بالتالي بداية، تقيني خطر المبالغة وتفي الرجل حقه في آن، خيراً من كلمات العلامة العلايلي في أبي وائل بعيد رحيله حيث قال: «علي ناصر الدين والعروبة كلمتان وعيت عليهما أول ما وعيت... ثم عرفته من قريب... فعرفت إيمان الأنبياء يوم تجسّد، وبراءة قلب القديسين، ومنعة عزم الأبطال وتألق وهج الحرية في مقلة الأحرار. حكاية ملمومة من هذا كله صارت إلى حياة، وتنزلت في دنيانا العربية تنزل القيمة... ذلك هو علي ناصر الدين اتخذته معياراً أقدّر به منازل الآخرين، فما أسلمني إلى خطأ ولم أزل عند حسباني فيه لم يختلف عليه تعديل»[٣].

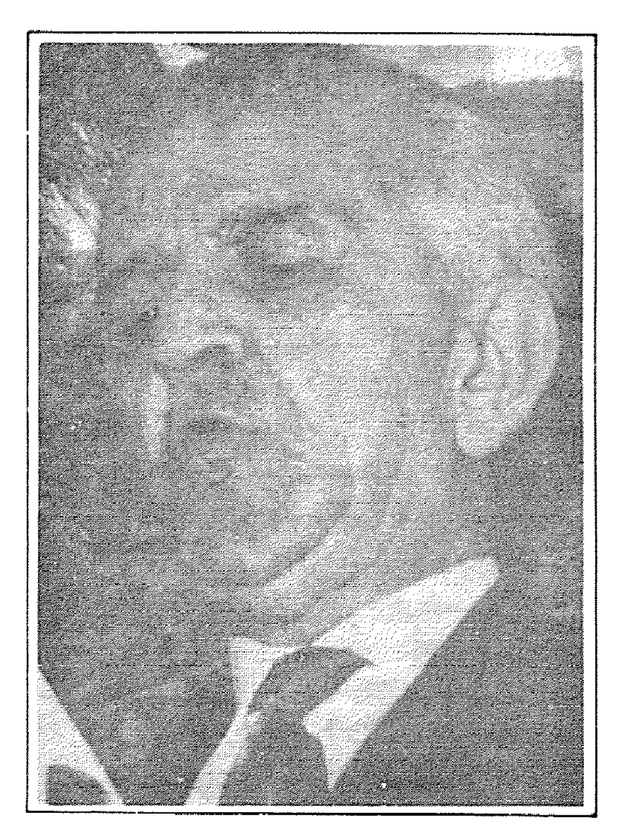
هوذا حكم جيل عاصر علي ناصر الدين فعاين جهاده الصادق، وتعرّف من قرب إلى فكره ووعيه وغاياته وتلمّس عن كثب إلى سعيه المضني في طريق الحرية والاستقلال وإدراك أسباب منعة العرب وقوتهم ووحدتهم. تلك هي «قضية العرب»[٤]، بل قضية علي ناصر الدين الخاصة والعامة شغلته حتى الثمالة فلم تترك مكاناً بعدها لقضية أخرى أو لشاغل آخر.

— ٢ —

يستطيع قارىء كتابات علي ناصر الدين أو المتتبع لوقائع سيرته أن يلحظ في الاثنين معاً حدةً غير عادية. ففي كتاباته إعلان صارخ لكل الأفكار دون أقنعة ولا توسط ولا مداراة، فلا مضمون الفكرة يقف عند حد ولا شكلها أو تعبيرها يماري أو يداري أو يعتدل، فإذا الأصل صرخة كتمها صاحبها في اللحظة الأخيرة. وكذا فصول سيرته، وهي أقرب إلى سير القديسين في حرارة الإيمان وثبات العزيمة وصدق النية وفي تحمّل صنوف العذابات التي لا قبل للناس العاديين بتحملها وإلى الحدّ الذي جعل رفاقه في العصبة ينعتونه عن حق بـ«الشهيد الحي»[٥] لجهاده وصدقه ومصابرته التي أحلّته مراتب الأعلين بين المناضلين على الإطلاق، وكذا في قول العالم الجليل المغفور له الشيخ أحمد رضا البالغ الدلالة، «... إذا قيل لي من هو المجاهد الحر الصابر على حر الجهاد، الماضي على سنته، في نصرة العرب والعروبة الصادق في جهاده، الذي لا يبالي بالآلام والشدائد مهما عظمت... لقلت لهم ذاك علي ناصر الدين»[٦].

والحقيقة أن حدة أفكار علي ناصر الدين لا يمكن أن تفهم تماماً إلا في ضوء الإحباط وخيبة الأمل اللتين أصابتا قوميي العرب من نوع النتائج التي أصابت العرب في خاتمة الحرب العالمية الأولى والتي أدت في جملة ما أدت إليه إلى إطاحة آمالهم بالاستقلال والحرية وللمرة الأولى. إلا أن الحدّة تلك تجد رافداً خاصاً بها في خصوصية شخصية علي ناصر الدين وفي تحولات السيرة التي بدا أن لها بين الحربين العامتين الأولى والثانية حربها الخاصة ضد انجلترا وفرنسا وإيطاليا كأعداء خارجيين وضد «العبيد البيض» أو «الزرق» من المرتزقة والأزلام وما شاكل من أعداء داخليين، وحرباً خلف هذه وتلك ضد التجزئة والإقليمية والكيانية والتخلف والاستسلام والذل المحيقة جميعها بواقع العرب وسعياً حثيثاً بالتالي نحو استعادة الأمجاد السالفة وبعث نهضة الأمة من جديد عبر الحرية والاستقلال والوحدة واستكمال شروط القوة وعدتها. وهل أبلغ في وصف هذه الحرب من تعبير علي نفسه في قوله: «أدعوكم إلى ركوب الصعاب، فمن لم يركب الغرض الصعب ركبه ما هو أصعب منه، وهل أصعب من العيش في الذل والثأر؟»[٧] وإذا كان لكل الحروب الأخرى نهاياتها فإن حرب أبي وائل لم تكن لتقف عند نهاية (أو إلى نتيجة) بل لكأنها أقرب إلى ملاحم الإغريق في مآسي أبطالها وهي تقاتل الآلهة والشمس والسموات فتذهب راضية إلى أقدارها ولا ترضى بخطوة واحدة إلى الوراء. وعلى ذلك بدت سيرة علي تزاحماً حاداً مثيراً للوقائع بين الكفاح والاعتقال، وبين الجهاد والمنفى، وفي الحالين إيمان وصدق ومصابرة والى منتهى ما يمكن لجسم رقيق نحيل أن يتحمل ثقل حرب لا تنتهي وأوزار قضية رآها الجميع خاسرة وبلا مستقبل.

بدأ نضال علي الأساسي في تطوع سنة ١٩١٨ في «جيش الشرق» الذي قاتل في فلسطين إلى جانب الحلفاء في سياق انخداع العرب القوميين



□ المجاهد علي ناصر الدين.

بوعود انجلترا وأوهام الحرية والاستقلال التي راودتهم في لحظة حاسمة من مفاصل التاريخ. لكنها أوهام تبددت فيما بعد، فانسحب علي عائداً إلى وطنه يناصب الفرنسيين المنتدبين الجدد الحرب فاعتقله الفرنسيون ونفي مع رفاق له إلى جزيرة أرواد على الشاطىء السوري. وبعيد عودته من المنفى سنة ١٩٢٢ أنشأ جريدة «المنبر» التي لم تكمل سنتها الأولى بسبب المطاردة والملاحقة وأخيراً الإقفال من قبل السلطات الفرنسية. لكن ذلك لم يجد نفعاً فعاد الفرنسيون إلى اعتقاله من جديد سنة ١٩٢٤ في سجن القلعة في بيروت ثم سيق مكبلاً بالحديد إلى منفاه ثانية ولكن هذه المرة إلى فلسطين وليؤسس من حيفا اتصاله الأول والباقي أبداً مع القضية الفلسطينية، من خلال مقالاته في «الكرمل» ودوريات أخرى. وكانت محاولته الجديدة في «اللواء» الطرابلسي مع أخوان له سنة ١٩٢٨ لكنها لم تعش هي الأخرى فعاد إلى فلسطين متابعاً في دائرة أوسع نضاله وجهاده. اشترك عام ١٩٣١ في المؤتمر الإسلامي العالمي الأول الذي عقد في القدس بحضور حوالي سبعين شخصية عربية وآسيوية وأفريقية. ثم تولى سنة ١٩٣٢ رئاسة تحرير «الجامعة الإسلامية» المعروفة آنذاك واشترك في تنظيمات «حزب الاستقلال» الأولى إلى أن أخرجه الإنجليز من فلسطين في أواخر سنة ١٩٣٢، وليبدأ في لبنان بعد أقل من عام العمل في أهم مشروع قومي ريادي على الإطلاق وهو تأسيسه مع نخبة مؤمنة من رفاقه «عصبة العمل القومي» وذلك سنة ١٩٣٣ بعد مؤتمر وطني عقد في مصيف قرنايل[٨]، والتي شكلت في مطلع الثلاثينات رافعة العمل القومي الأساسية في لبنان كما في كثير من أقطار المشرق العربي (وهو ما سنعود إليه)، وترأس علي فرع لبنان في العصبة حتى نهاية الثلاثينات، وإلى أن اعتقلته السلطات الفرنسية سنة ١٩٣٩ وبعثت به منفياً إلى تدمر مع عادل أرسلان وآخرين من المناضلين العرب ثم إلى معتقل «المية ومية» قرب صيدا والذي لم يخرج منه إلا مع صبيحة إعلان استقلال لبنان في أواخر تشرين الثاني لسنة ١٩٤٣ أي بعد أربع سنوات من الاعتقال.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية كان سعي علي متجهاً بكامله نحو تأمين انخراط أكثر اتساعاً وفاعلية في رد الغزوة الصهيونية وأسهم من خلال مقالاته واجتماعاته وخطبه الإذاعية النارية، ثم أسهم عملياً مع فوزي القاوقجي في تشكيل جيش الإنقاذ وتولى إدارة المحطة الإذاعية المرافقة وخاض فعلياً أكثر من معركة طوال سنتي ٤٧ ــ ٤٨، وليعود من النكبة مهزوماً، منكسراً، مهيض الجناح، والثأر يغلي في عروقه ودمه كما النار في المرجل. ولست أبالغ في هذا التعبير، بل هو لعلي نفسه كما يروي[٩] رافضاً بعد النكبة أي حديث أو كلام أو محاضرة إلا في النكبة أو الأصح في الرد على النكبة والحاجة إلى الثأر. وأي دليل على نفوذ أفكار علي ناصر الدين (وعلى نفاذ صدقه في الحقيقة) أبلغ من واقع أنه يقف، كما يبدو وكما يذكر فيصل جلول[١٠]، خلف جزء رئيسي من الأفكار والدوافع التي حدت بجورج حبش ووديع حداد ورفاقهما إلى تأسيس «منظمة شباب الثأر» التي كانت نواة «حركة القوميين العرب» بعد ذلك. ومن غير المستبعد على الإطلاق، في ضوء تفاصيل المرحلة، أن تكون تسمية «شباب

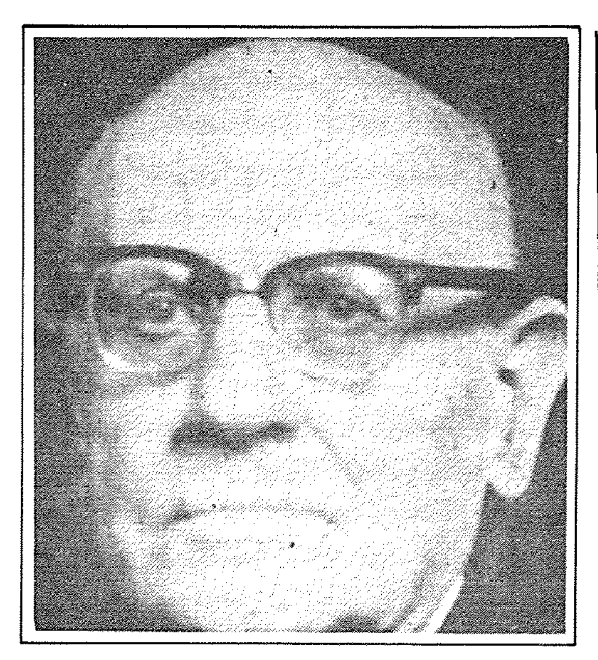
الثأر» من وحي أو تأثير أفكار علي ناصر الدين وبعض «نصائحه»، التي مرّ بها جلول في تأريخه للحركة.

أما بعد ذلك، وبصحة متردية كانت تتجه سريعاً إلى المرض، صرف علي ما تبقى من سنوات عمره في الكتابة أو في إعادة كتابة أهم الصفحات الحضارية في التاريخ العربي إلى أن اقعده المرض الشديد عن القراءة والكتابة معاً وإلى وفاته في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤.

— ٣ —

في السيرة التي عرضنا لها، أو في الترحال الدائم بين المُعتَقل والمنفى، كانت تهمة محددة تساق باستمرار في وجه أبي وائل وهي مقاومته للمستعمر المحتل — أو المنتدب زوراً. إلا أن ذلك المقدار من العسف والظلم والحقد على الرجل لا يمكن تفسيره البتة بغير ملاحظة أن أولئك قد عثروا عنده على ما هو أكثر من مجرد رفض الاحتلال والانتداب وعلى أخطر من مجرد السعي إلى الاستقلال — وهو شكلي في كل حال — فقد التقط أولئك، على نحو واضح ومنذ مطلع العشرينات، ما هو أخطر وأكثر من مجرد الرفض والمطالبة ألا وهو مشروعه العربي القومي النهضوي والوحدوي. هوذا سرّ علي ناصر الدين الذي انكشف جزءاً جزءاً أو تصاعد خطوة: خطوة، مذ هزمت أول تجربة عربية استقلالية حديثة سنة ١٩٢٠، وليبلغ ذروته حسب اعتقادي في تأسيس عصبة العمل القومي سنة ١٩٣٢، أعظم إنجازاته على الإطلاق، والتي بدت مفصلاً حاسماً بين حقبة وحقبة أو قل بين تاريخ وتاريخ. فما هي قضية علي ناصر الدين تلك؟

إذا كان لغالبية الناس، لا مراء، أكثر من قضية، وإذا كان لمعظم المشتغلين بالسياسة غير هم وقضية، فإن لعلي ناصر الدين وعلى العكس تماماً قضية واحدة وهي «قضية العرب». هوذا ما يلحّ علي في إعلانه وإيضاحه وشرحه والتفصيل فيه، منذ أولى كتاباته في العشرينات، والمجموعة أجزاء منها في «هكذا كنا نكتب»، إلى تأريخه لقادة العروبة البارزين قبل الإسلام[١١]، إلى كتابه النظري الرئيسي والذي يحمل العنوان نفسه «قضية العرب»[١٢]. وهكذا بدت قضية



□ ساطع الحصري.

العرب، وبكل الشمول والاستغراق قضية علي الأولى والأخيرة، وقضيته الخاصة والعامة كذلك. وإذا كان الغموض والتعميم وفقدان الدقة هي صنو الشمول في الغالب، فإن شمول قضية العرب عند علي ناصر الدين كانت بخلاف ذلك تماماً على كثير من التحديد والتدقيق والوضوح. فإذا العروبة عنده قومية، وإذا القومية رسالة بعث الأمجاد السالفة، وإذا الهدف دولة عربية واحدة من جديد وبكثير من التخصيص الفردي والذاتي يبدأ علي ناصر الدين بتحديد هويته في مطلع قضية العرب فيقول: «نعم أنا قومي، ومعنى ذلك أنني عربي مؤمن بعبقرية أمتي وبحقها في الحياة، حرة، مستقلة، موحّدة، ومؤمن بمستقبلها العظيم وبأنني وأخواني القوميين العرب بناة هذا المستقبل»[١٣].

أما ما يريده علي من نفسه ومن «اخوانه» ومن جيله بالتالي فهو في ذلك واضح تماماً حين يقول: «إنني أعتبر كل عربي مهما يكن منشؤه ومهما تكن عقيدته الدينية، أخاً لي متمماً لقومي... وإنني حارس العروبة أحميها بأخلاقي وأقوالي وأعمالي ودمي... رسالة القوميين العرب هي رسالة القوة والحق والخير إلى العرب ثم إلى الناس كافة. ويريد القوميون العرب من وراء ذلك أن يخلقوا من الناشئة العربية ذكوراً وإناثاً جيلاً قوياً صالحاً جريئاً خيّراً عاملاً مؤمناً... يعمل

لإنشاء كيان قومي عربي موحد قوي، أي دولة عربية اتحادية كبرى، تستند إلى القومية الخالصة وتحارب الجهل والفقر والمرض والظلم وكل عصبية إلا العصبية القومية»[١٤].

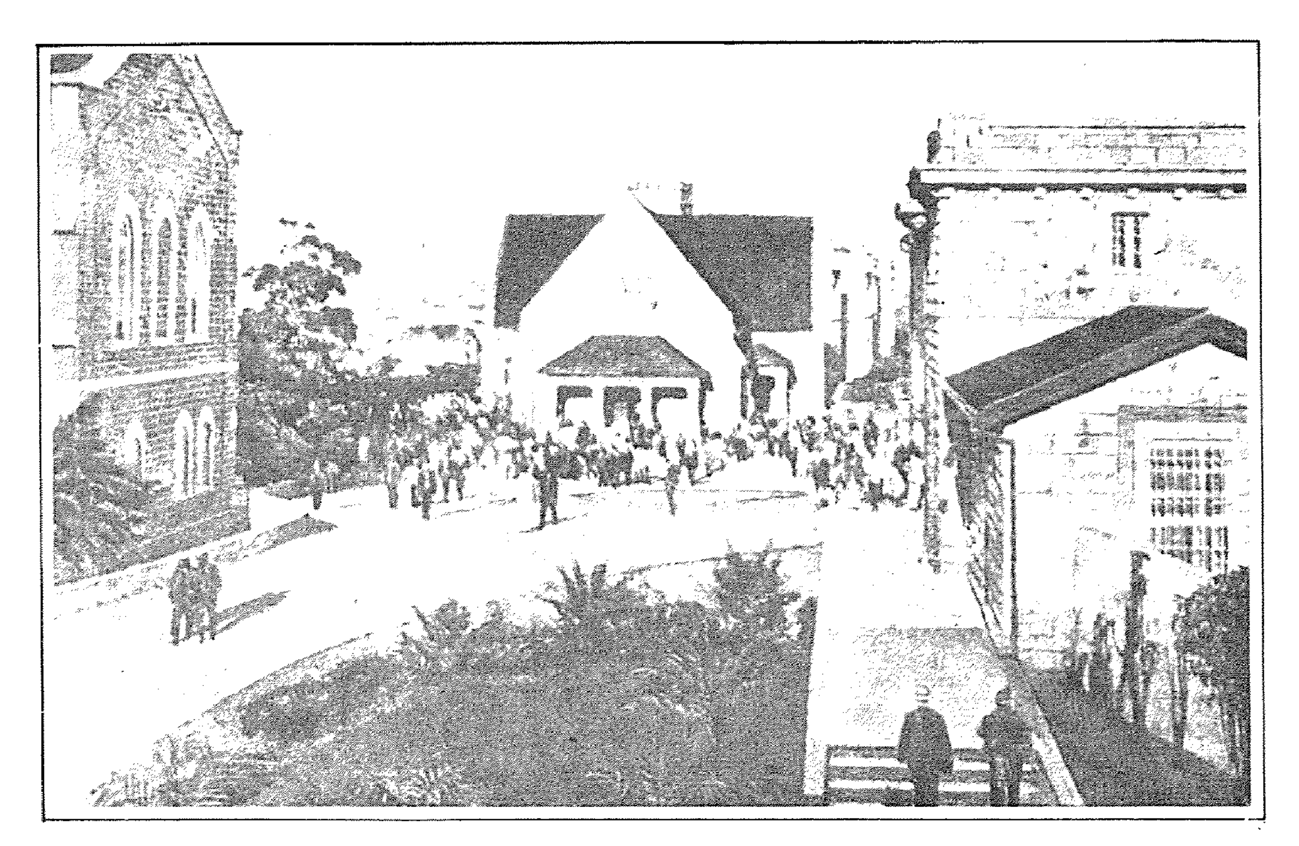
وإذا قيل في هذا الكلام أنه قول متأخر يعود إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية[١٥]، فإننا نحيل مثل هذا المعترض إلى قول أسبق لعلي يعود إلى سنة ١٩٣٨ ومنه جريدة «المساء» يومذاك حين يقول في صياغة ليست أقل وضوحاً على الإطلاق من رأينا: «أنا رجل عربي قومي مؤمن أعمل في سبيل إنشاء دولة عربية قومية كبرى»[١٦]. أم نحيل هذا المعترض إلى «اليوم» ١٩٣٧ حيث يقول: «لا قومية لنا إلّا القومية العربية، فنحن عرب نعمل ونجاهد في إيمان وإخلاص للوحدة العربية، ونريد أن نقنع اللبنانيين كافة بهذا ولا يتيسر لنا ذلك ما نوقعنّ في نفوس الذين من اللبنانيين ربتهم الإرساليات السيارة والمعاهد الأجنبية الثابتة تربية غربية وأشربتهم روح النفور من العرب والعروبة، لا يتيسر لنا ذلك ما لم نوقظ في نفوس هؤلاء جميعاً الشعور بالقومية العربية المرتكزة على التاريخ واللغة والأدب والتقاليد والسلالة الغالبة والمصلحة المشتركة...»[١٧]. بل إنك لتجد هذا الاتجاه واضحاً في كتابات نهاية العشرينات، أي قبل التبلور النهائي لنظرية القومية العربية وفي الوقت الذي كانت الأوساط الثقافية المحلية ما تزال خاضعة لتأثير «الأب لامنس» اليسوعي في نظريته حول سوريا السورية غير العربية. يقول علي ناصر الدين: «والواقع أن السوريين جميعهم جنس واحد، ما يختلفون إلا في العقيدة الدينية وأعني أن فيهم المسلم وفيهم المسيحي ولكنهم كلهم عرب سوريون»[١٨]. وسيصوغ علي، في «قضية العرب» بعد ذلك رداً علمياً تفصيلياً على نظريات لامنس وادعاءاته وسوء النية التي يشترك فيها لامنس مع غالبية المستشرقين والغربيين منهم بخاصة[١٩]. وتبقى الإحالة الأخيرة والأكثر أهمية، لمثل هذا المعترض، إلى إسهام علي في تأسيس عصبة العمل القومي سنة ١٩٣٢ بنصوصها «الأخيرة» والتي غدت نموذجاً في تعبير القوميين وإنشائهم.

وهكذا أرسى على منذ نهاية العشرينات الخط العربي القومي الخالص الصراح والذي لا تشوبه شائبة ولا يدخل فيه غير العامل القومي دون سواه. لذلك يجب أن نضيف، ومن باب الأمانة العلمية، أن علياً يستبق زمنياً في ذلك غالبية القوميين العرب ومنظّريهم ومفكّريهم، وأن هؤلاء سيجدون بالتالي في كتابات علي، كما تثبت كل قراءة مقارنة، بذور كثير من أفكارهم وأصولاً غير نظرية من نظرياتهم بل وقدراً لا بأس به من تفاصيل شكل خطابهم القومي وأدواته وصياغاته.

فالعروبة عند علي ناصر الدين، وفي نصوص أوائل الثلاثينات، هي بمثابة دين، هي كذلك عند القوميين، يقول علي: «العروبة في نظرنا على الأقل مجموعة روحانية من صفات لا تلمس وتعرف بأثرها في النفوس وما ينبثق عن هذه النفوس من أعمال... ومن صفات هذه المجموعة الروحانية... المعرفة والعظمة والسمو والحق والعدل والرحمة والحرية والعزة والجبروت وما إلى ذلك من صفات...

وباختصار فإن مشروع علي ناصر الدين القومي كان يستند، من وجهة نظره على الأقل، إلى العقل لا إلى العاطفة، وإلى «المفهوم العلمي لكلمة قومية» لا إلى الهوى والرغبة؛ وهكذا فقد بذل جهداً واضحاً، كما شأن البحّاثين والعلماء، لإثبات عروبة الأقوام التي دخلت في تشكيل ما يسمى اليوم بالأمة العربية. يقول علي: «وليست المسألة مسألة قول وهوى. كلا، بل هي مسألة علم وعقل وتاريخ ومصلحة عامة عليا»[٢٠] وهكذا واستناداً إلى ما اعتقده منهجاً علمياً في التعريف، ذهب ناصر الدين إلى أن القومية هي مجموعة من الخصائص والمزايا والطباع والتقاليد والعادات والفضائل والعيوب أيضاً وطرق النظر إلى الكون والنظم الاجتماعية تنطبع بالجملة على مر الأجيال، وبدرجات متفاوتة من حيث الكم أو القدر، في نفوس قوم تعرف بهم ويعرفون بها، وهم قوم تجمعهم جامعة واحدة لغوية وأدبية وتاريخية وروابط مشتركة من ذكريات ومصالح ومؤثرات إقليمية متممة بعضها للبعض الآخر من دون أن تقوم فيهم جميعاً الوحدة العنصرية. هذه هي القومية»[٢١]. إن هذا التعريف، وكما هو واضح، لا يخلو من

المنهج العلمي والتاريخي في النظر إلى المسألة القومية. فهو يعتقد أن هناك موجة رئيسية، كما يثبت بعد ذلك، بدأت في الجزيرة، لكن الانتماء إلى العرب والعروبة ليس حكراً أو وقفاً عليها، أو على أية معايير اثنية أو سلالية أو عنصرية. إن شبكة أكثر اتساعاً من العلاقات والعوامل بل «والمصالح» هي ما يشكّل فعلاً نسيج القومية في رأي علي ناصر الدين، وهو موقف متقدم تاريخياً ونظرياً على كثير من أصحاب النظريات الاحادية في المسألة القومية. ورغم أن ناصر الدين يشترك مع الحصري في إضفاء أهمية خاصة على مسألة وحدة اللغة[٢٢]، إلا أنه يبدو من مقارنة كتاباته بتحليلات الحصري في كتابه «ما هي القومية»، أن ناصر الدين هو أقل كلاسيكية وأكثر تاريخية من بعض مواقف الحصري في المسائل التي تعرض لها. لقد دخلت «المصالح» في تعريف القومية، وهي دليل العقلنة، كما في نوع الروابط التي تشدّ الأقطار العربية بعضها إلى بعض، أو تلك الحلقات في السلسلة الواحدة. فقد رأى مثلاً أن ما يربط لبنان بالعروبة، هو كل تلك الروابط بالإضافة إلى مصلحته تحديداً، لذلك فهو يقول في نص يعود إلى سنة ١٩٣٠: «وإنه من الرجولة الحق أن يغلّب المرء عقله على هواه، وأن مصلحتنا جميعاً لو عقلنا في أن نصبغ لبنان بالصبغة العربية القومية الصرف»[٢٣]. والمصلحة اللبنانية ليست المادية وحسب وإنما في تجاوز انقسامات اللبنانيين ومذاهبهم ومللهم. والمصلحة كذلك، إلى الروابط الأخرى، هي ما يوحّد بين مسلمي الشرق ومسيحية: «... ليس في لبنان في نظرنا مسيحيون ومحمديون في عرف السياسة ولا في عرف القومية والوطنية وإنما فيه لبنانيون تجمعهم مع أهل هذا الشرق العربي القومية العربية والمصلحة العربية السياسية منها والاقتصادية والعسكرية..»[٢٤] وكذا المصلحة القطرية تحديدا هي التي تفرض على كل قطر عربي أن يسعى إلى الآخر، لذا نراه يقول في نص يعود إلى سنة ١٩٣٥: «نحن نؤمن بعد شتى التجاريب ومختلف ألوان الاختبار أن الأقطار العربية يستحيل عليها أن تتحرر أو تستقل وتعيش على طول منفرداً بعضها عن البعض الآخر»[٢٥]. ولا حاجة بنا للاسترسال في هذه النصوص إلى ما لا نهاية، لأنها كثيرة وتوحي جميعاً بمقدار النضج الذي كان يسم تفكير علي ناصر الدين القومي، ولعل عزوفه عن الوحدة العربية الاندماجية أو «اندروبانية» إلى الوحدة العربية الاتحادية هو، كما سنرى، ملمح آخر من ملامح النضج والواقعية. واستناداً إلى معياره التاريخي والواقعي والجدلي، إلى حد بعيد، استطاع علي ناصر الدين أن يتجنب مأزق غلاة القوميين في فروضهم السلالية غير القابلة للإثبات وأن يستبدلها بشبكة أوسع تستطيع استيعاب مختلف العناصر الأثنية التي دخلت في صلب الأمة العربية، «... إن وحدة الدم والسلالة المطلقة... ليست شرطاً، لا تكون جماعة من الناس بدونه، أمة واحدة تامة، وإن للأمة الواحدة التامة عناصر تخلقها وقد حددناها... وقد توفرت هذه العناصر لشعوب الأقطار العربية التي ذكرناها وخلقت منهم أمة واحدة تامة»[٢٦]. وقبل الخروج من تحديدات القومية العربية عنده فإن الإضافة الناصر الدينية الأخيرة، في هذا الشرق على الأقل، هو حسمه الخيار القومي على نحو نهائي وإخراجه بالتالي من إشكالية الدين واعتباره شأناً قومياً اجتماعياً وسياسياً. فعلى خلاف كثير من رفاقه القوميين أمكن لعلي ناصر الدين أن ينجز، ومنذ الثلاثينات، تصوراً تاريخياً سياسياً مدنياً للعروبة وللقومية العربية. وتحت عنوان: «دعاة القومية لا يفرقهم الدين» يكتب علي ناصر الدين في شباط ١٩٣٠ ما يلي: «لا جدال بأن في الأوساط الإسلامية العربية في لبنان، وغير لبنان، حركة استياء عنيفة جداً يصح أن توصف بأكثر من ظروف قابضة... ولا جدال أيضاً بأن هذا الاستياء العنيف يتغلغل... في الأوساط العربية غير المسلمة، وأنه لا أثر له في الأوساط المسلمة غير العربية على الإطلاق، إذن فالمسألة مسألة قومية عربية وليست مسألة دين»[٢٧]. إلى أن يضيف وبوضوح كلي: «إننا عُصَب تدعو إلى تشييد الكيان السياسي على أسس القومية الخالصة. وأن قسطا وغسان العربيين لأقرب إلينا وأحب من محمد خان العجمي وعصمت قره بكير التركي».



□ الجامعة الأميركية في بيروت.

وهكذا، وبوضوح تام وفي استعادة للتجارب القومية الأوروبية النموذجية، يفرّق علي ناصر الدين تماماً بين الانتماء القومي والانتماء الديني. وقد جاء تأسيس «عصبة العمل القومي» ليؤكد على هذه النظرية؛ وعلي ناصر الدين يدرك تماماً الدور الريادي الذي مثّله أو مثّلته العصبة في تحقيق هذا التميّز أو التخارج بين المفهومين فيقول: «كنّا أوّل من عرّف القومية تعريفاً علمياً واضحاً صحيحاً وحددنا قضية العرب... تحديداً علمياً قومياً سياسياً وفرّقنا بين الجامعة الإسلامية وبين الجامعة العربية... ونشرنا.. إن القومية شيء والدين شيء آخر»(٢٨).

وهكذا تنتهي محاولة علي ناصر الدين في تأسيس نظرية علمية في القومية العربية تبدأ من التحديد الدقيق لمفهوم القومية وتحديدات العربي والعرب والعروبة مع التمييز الدقيق بينها وبين ما هو ديني أو إسلامي أو شرقي. وهي محاولة تتضمن مقداراً من الجدّة والريادة والإضافة، وتتضمن في كل الأحوال قدراً واضحاً من المنهجية والعقل والمنطق والعلم بعيداً، إلى حد ما، عن منازع الهوى والرغبة والانفعال، مع حظوظ متفاوتة من النجاح والتوفيق، وهو أمر طبيعي بالتأكيد. ذلك هو الجانب النظري التأسيسي في مشروع علي ناصر الدين القومي. لكن علي ناصر الدين لم يكن منظّراً بمقدار ما كان مجاهداً وعاملاً فعلياً في مجريات واقعه، وعلى ذلك فإن ذلك الجانب الفطري الأوّلي لن يجد معناه الحقيقي إلا حين يستكمل بما هو عملي وتطبيقي وهو ميدان كان لعلي فيه اليد الطولى والإسهام الفعلي والمباشر. كيف يمكن إذاً حمل المشروع القومي من مستوى النظرية إلى حيّز التطبيق؟ كيف يمكن تحقيق الدولة العربية الكبرى العتيدة؟ وما هي الوسائل والأدوات؟ تلك هي أهم عناوين إسهامات علي ناصر الدين العملية أو التطبيقية والتي سنعرض لها في الفقرة التالية.

— ٤ —

تقوم مسألة العمل في رأس أولويات قضية العرب عند علي ناصر الدين. وما النظرية التي أفضنا في شرحها، على أهميتها، غير الدليل أو المرشد أو الكشّاف الذي يكتسب معنى وجوده، بل مبرر وجوده، في حدود مقاربته لمسألة

العمل والتأسيس لها ولإيقافها بالتالي على قدميها وفي الخط المستقيم الذي يوصل إلى الغايات الكبرى مباشرة ودونما ضياع أو ضلال أو تضليل. وعلى ذلك فالانتماء للعروبة إنما يكون، في تقدير علي ناصر الدين، بمقدار العمل في سبيلها وبذل التضحيات لدفعها من مستوى الفكرة إلى مستوى الواقع. يقول ناصر الدين: «إن القياس الصحيح في نظري لليقظة الصحيحة عند العرب... إنما هو أولاً وقبل كل شيء في مقدار ما يثبت من استعداد عند العرب للعمل الجدي الحاسم...»[29]. هذا العمل، بل هذه الجدية في العمل، هي ميزة دائمة في سلوك علي ناصر الدين، كما في شخصيته. وهل أدلّ على ذلك من حالات الاعتقال التي تعرض لها طوال فترة الانتداب الفرنسي؟ وإذا تجاوزنا العمل بهذا المعنى اليومي المباشر رأينا ناصر الدين يبرمج نضاله الوطني والقومي وعل نحو مبكّر في أشكال عملية تفصيلية — رغم أنها محكومة على الدوام بسقف مركزي استراتيجي. أما أبرز أشكال عمل علي ناصر الدين في الفترة المبكرة تلك فهي دعوته منذ أواسط العشرينات إلى سياسة «اللا تعاون»[30] مع المستعمر أو المنتدب والتي تأخذ شكل المقاطعة أو السلبية وتحت تأثير الفلسفة التي أشاعها غاندي في الهند في مطلع العشرينات: «السلبية في إيجاز هي أن تتجاهل وجود السلطة المنتدبة الحاكمة فلا تقبل منها وظيفة ولا تقبل منها لقباً، ولا وساماً ولا دعوة إلى حفلة، ولا تدخل معها في مفاوضات... إلى أن تعترف هذه السلطة بحقك وتحترم هذا الحق... على أن هذا المنهاج ينبغي أن يطبق معه منهاج وطني للعمل الإنشائي وإلا غدا ليس خيالاً فحسب بل لغواً وهراء أيضاً...»[31]. هذه عيّنة من الروح العملية عند علي ناصر الدين بدت في مرحلة مبكرة جداً وانتهت به كما نعرف إلى الاشتراك الفعلي في حملة «جيش الإنقاذ» وفي كثير من معاركه في فلسطين.

إلا أن ما يعنينا الآن من «عمل» علي ناصر الدين هو أكثر من ذلك قليلاً؛ وهو تحديداً نوع العمل المطلوب في بعث الأمجاد العربية السالفة، في تحقيق الأحلام القومية الكبرى وفي الوصول أخيراً إلى الوحدة العربية ودولة الوحدة العتيدة والمرجوة. يقول علي ناصر الدين: «إن مرماي البعيد هو الوحدة العربية، وإن مثلي الأعلى هو الحياة والموت في سبيل إنشاء الدولة الكبرى لهذه الأمة العربية التي أريدها عظيمة في مختلف نواحي الحياة... تطبع بطابعها الدنيا كلها»[32]. ولأن مثل هذه الغاية لا يعوزها الوعي، عند علي ورفاقه في الأقل، وإنما يعوزها العمل والتنظيم والتضحية، أقر هؤلاء مبدأ «العمل القومي الجدّي المنظّم»، فكانت المبادرة القومية الأهم في مطلع الثلاثينات عنيت بها تشكيل «عصبة العمل القومي» سنة ١٩٣٣. تأسست العصبة إثر مؤتمر وطني عقد في «قرنايل» بمبادرة من علي نفسه وضم نخبة من العاملين في سبيل القضية العربية من لبنانيين مع عدد أقل من السوريين والعراقيين، وترأس علي فرع لبنان في «العصبة» والذي بدا أنه الأكثر نشاطاً. وقد بدا من تطور الأحداث، ومن شهادة التاريخ بعد ذلك، أن العصبة كانت إحدى أولى المحاولات الكبرى لبلورة عمل قومي عربي منظّم يقود نحو الأهداف القومية. ولذلك تبدو شهادة لطف الله الخوري في محلها حين يقول عن علي: «وكان أحد مؤسسي أول حزب عربي على أسس علمية وقومية خالصة»[33]. أما محمد علي الرز والذي كان أحد المشتركين في مؤتمر «قرنايل» والذي انتخب أميناً عاماً «للعصبة» فيقول في تأسيس العصبة: «كان علي ناصر الدين القلب النابض لذلك المؤتمر الذي انبثق عنه حزب «عصبة العمل القومي» الحزب القومي الوطني الذي جسّد بشكل علمي آمال الملايين من الخليج إلى المحيط والذي تتلخص أهدافه في ما يلي:

١ — العرب أمة واحدة...

٢ — الأمة العربية جسم اجتماعي واحد...

٣ — البلدان العربية بكليتها وطن عربي واحد.

٤ — القومية العربية تنبذ كل ما عداها من العصبيات الطائفية والقبلية والأسرية.

٥ — الحركة العربية هي حركة بعث وتحرير وإنشاء.

٦ — تعمل العصبة لإقامة نظام اقتصادي عادل شامل يظفر فيه كل مواطن بحقه المتناسب

مـع عمله. وتحارب الجهل والفقر والمرض.

ثم تركز بقية الأهداف على الإنماء والمشاريـع الاقتصادية وبالعدل وبالمساواة بين الرجل والمرأة وبضرورة التركيز على التنظيم داخل الدولة[٣٤].

أمـا ما يقـوله علي نـاصر الدين نفسـه في «العصبـة»، وهو عـلى قدر كبـير من الأهمية التـاريخية، فلنقـرأ بعضاً منـه في محاضـرته المشهورة في عاليه قبل تخليه عن رئاسة العصبة وأثر خروجه من المعتقل، يقول علي: «أما بعد فإن عصبة العمل القومي، ليست حزباً بالمعنى الذي تواضـع عليه معظم الناس في هذه البلاد... إنها حزب فكرة وعقيدة وهدف قـومي رفيـع عام، ونظام، يتسـع لكل عربـي يحب الحق والحرية والخير والكرامـة»[٣٥] ويكمل نـاصر الدين في الطابـع الرسـالي للعصبـة: «ولكنـه الحق... ويستحيل أن يجهل الحق الناس جميعاً، فإن جهله ناس في ناحية ما أو في حين ما فإنما مزية القومي المؤمن... أن يدلهم عليه وأن يترفـع عن استغلال جهلهم إياه... وعصبة العمل القومي إيماناً منها بهذا المذهب تقول ما تقول وتعمل ما تعمل وعلى أساس هذه العقيدة التي نأخذ انفسنا بتطبيقها عملياً... وكيف أن العصبة فكرت تفكيراً علمياً صحيحاً خالصاً، لوجه الحق ووجه الوطن، عاقلاً متسلسلاً لا يطغى فيه أثر العاطفة على أثر العقل والعلم والواقـع، حينما لبّت نـداء الإلهام وآمنت بقـدرتها عـلى حمل الرسالة العظمى التي تحمل للعرب أولاً ثم لسائر الناس»[٣٦]. ويدرك علي تماماً ما أنجزته العصبة على المستويـين اللبناني والعـربـي ومن وجهة تاريخية فيقول: «وقد نشرنا في لبنان الذي نريده واسطة السلسلة وحلقتها الذهبية — إن أمكن — ما آمنا به، وقامت الحجة العلمية على صوابه من أن اللبنانيين عرب لا قوميـة لهم إلا القوميـة العربية، وكنا أوّل من عرّف القومية تعريفاً علمياً واضحـاً صحيحاً، وحـدّدنا قضيـة العرب... تحديداً علمياً قومياً سياسياً. وقلنا بهذه وعملنا لها ودعونا إلى القول والعمل لها وميزنا بـين الوحدة والاتحاد وقلنا بالاتحاد اليوم ونشرنا بين اللبنانيين كافة أن القـومية شيء والدين شيء آخر...»[٣٧]. هذا ما أنجزته «العصبة» في ما هو رئيسي وتاريخي من نضالها معرضين عن يومياتها التي حفلت بالكثير من آيات العمل المضني والكد والكفاح ومقاتلة المستعمر والمنتدب وإلى الحد الذي دفعه إلى اعتقال أعضاء لجنتها المركزية بالكامل.

ولا عجب بعد ذلك أن يمر كل مؤرخ للقومية العربية، ولـمرحلة الثلاثينـات، «بعصبة العمـل القومي» كأحد المعالم الأولى والأساسية والفاعلة في سياق نظرية القومية العربية، بل في سياق الأحداث عموماً. يقول البرت حوراني...: «... وفي سوريا دعا حزب «عصبة العمل القومي» الذي باشر عمله في سنة ١٩٣٥ إلى برنامـج... نص على الاستقلال الوطني والوحدة العربيـة والعلمانية والإصلاح الاجتماعي. وقد لعب أمثال هذين الحزبين (الآخر هو الأهالي في العراق) دوراً معيناً في حياة سوريا والعراق السياسية... إن اهميتها ترجـع في الأخص إلى كونها حاولت أن تعبّر عن عقيدة قومية أشد ترابطاً...»[٣٨].

لقد أدّت «عصبة العمل القومي» دورها كاملاً وحتى نهاية الثلاثينات فبعثت الكثير من المشاعر القـومية والوعي القـومي وبيّنت الحاجـة إلى التجمـع والاتحاد في دولة عربية واحدة، ولم تكن قادرة في الحقيقة أن تفعل أكثر من ذلك. هي ذلك «الوعي القومي الحق» الذي «ينبغي أن يأتي دوره قبل كل ثورة» كما قال علي ناصر الدين؛ والعصبة لم تبخل في دفـع مثل هذا الوعي إلى الواجهة. إلا أن تجربة «العصبة» قدّمت لعلي، كما اعتقد، ما هو أكثر من ذلك. إذ أن تمرّسه وبكثير من المسؤولية في التنظيم والسياسة دفعا فكره نحو مزيد من النضـج والواقعية. فأدبيات علي ناصر الدين في أواخر الثلاثينات وما تلاها تتضمن قدراً من التمايز من كتاباته سحـابة العشـرينات ومـطلـع الثلاثينـات، في مضمون مشروعه القومي الذي كان يزداد اتساعاً وتعقيداً ليشمل مصر والسودان وشمال أفريقيا، كما في شكل ذلك المشروع وفي مفردات خطابه القومي وأدواته ووسائله عموماً. ولعل أهم تلك التحولات هو استنفاد العصبة، كتنظيم شعبـي حزبـي، غاياتها وليبدي علي بالتالي مزيداً من الواقعية في التعاطي مـع المعطيات السياسية المستجدة من حكومات وزعـامات بـدت أهلاً لتقبـل خطابـه القومي. هذا التحول يتلازم كما أرى مـع تحول

آخر أكثر أهمية هو العزوف المتزايد لعلي عن حلم الوحدة التامة الشاملة نحو مطلب أكثر واقعية هو الاتحاد الفدرالي تحديداً، ورغم أن بذور هذا التحول موجودة من قبل إلا أنها لم تكن على الإطلاق بمثل هذا الوضوح والتأكيد والمتابعة. وهو في النهاية مطلب لا يخرج عن سياق الوحدة وإن بدا أكثر واقعية وفهماً لوقائع العصر. يقول علي في نص يعود إلى سنة ١٩٣٨: «إنني أعتقد أن كل ما هنالك من عوامل للتجمع والاتحاد متوفر للأقطار العربية والحكومات العربية أكثر من توفره لغيرها في الأقطار والحكومات التي تجمعت واتحدت... وهذا لا يخفى على أحد من العارفين بالأقطار العربية وجغرافيتها وتنوع مناخها... والشعور الكامن في شعوبها، ولعل مما يوحي إلى بعض الناس بمثل رأي العالم الفاضل السيد أحمد لطفي السيد(*) غفلة بعض العاملين في ميدان القضية العربية عن التنظيم وذهابهم مع العاطفة من غير ما اتزان وانصرافهم عن العمل الإنشائي المستند إلى القواعد العلمية في شتى نواحي النهضة من اقتصادية واجتماعية وتثقيفية وتاريخية قومية...»(٣٩).

إن حقيقة الكيان العربي الواحد القائم ضمناً في كل الوقائع لا يعوزه إلا التنظيم والعمل والبرمجة القادرة على تحويل ما هو إلى حيّز الفعل والوجود. هذا هو تصور علي ناصر الدين الدائم. يقول علي: «لقد عرفنا ما هي الأمة الواحدة التامة وآمنا بعد تحديدها وبعد تبيان حقيقة أهل الأقطار العربية بأن هؤلاء إنما يؤلفون بمجموعهم أمة واحدة تامة فما هي العوامل التي يجب أن تتوفر لتأليف دولة اتحادية كبرى واحدة ولأمة واحدة؟»(٤٠) ويعدد علي أهم تلك العوامل فإذا هي وجود الوعي القومي الصحيح أولاً، ثم توفر القادة العقلاء المخلصين المنزهين، ثم ولعله الأهم تبني «بعض الدول العربية العريقة القائمة فكرة إنشاء كيان قومي عربي موحّد أي دولة اتحادية واحدة كبرى واعتبار نفسها، من هذه الجهة، من العرب كما اعتبرت بروسيا مثلاً نفسها من الألمان سنة ١٨٦٦...»(٤١).

لقد أدرك علي، وبكثير من الواقعية، أن حقيقة الأمة الواحدة لا تنفي الحقيقة الثانية وهي أن لكل بقعة وشعب من بقاع الأمة وشعوبها لها أو له وضعه الخاص غير المماثل تماماً لسائر البقاع والشعوب: «وما فاتنا أن هذه الحلقات غير متماثلة من بعض النواحي وأنه ينبغي لنا ويتحتم علينا أن نعمل جاهدين لتتماثل وتنسجم»(٤٢). ولذلك بدت الصيغة الاتحادية هي الأمثل لتحقيق ما هو مباشر وآني من ظروف الوحدة ووقائعها. كذلك تستجيب هذه الصيغة لواقع أن جسم الأمة لم يعد الآن كتلة واحدة وإنما هو دول وحكومات ويجب أخذ مصالحها بالاعتبار في أية صيغة وحدودية.

وإذا كان افتراض وجود «بروسيا عربية» ما هو شرط قابل للنقاش، رغم أنه فرض لا يخلو إطلاقاً من التاريخية والمنطق، فإن الأكثر تاريخية ومنطقاً وواقعية هو تلك الصيغة الاتحادية التي اقترحها علي والتي لا تزال حتى الآن إحدى أبرز الخيارات المطروحة دائماً في أية صيغة تتناول العمل العربي المشترك، ولعل بعض التجارب الوحدوية التي حدثت قد أكّدت، حتى في فشلها، صوابية الخيار الاتحادي وتقدمه الخيار الوحدوي «الاندماجي» الذي رأى علي فيه كثيراً من اللاواقعية، وفي ضوء المعطيات الحالية على الأقل. وقد أنجز علي ومنذ سنة ١٩٤٩ ما اعتقد أنه صيغة نهائية لـ«مشروع الاتحاد العربي»، يجمع حكومات الدول العربية وعلى النحو الذي «يجعل من الأمة العربية الواحدة في آسيا وأفريقيا عنصراً قوياً فعالاً» يسمح بالتقدم الاجتماعي والاقتصادي «وبسيادة الحرية والحق والعدل أيضاً»، كما ورد في التوطئة للمشروع(٤٣).

أما في صيغة المشروع ومرونته فتقول المادة الثانية من الفصل الأول: «لتكوين هذه الأمة ليس من سبيل جمع الدول العربية في اتحاد فدرالي يصل ما انقطع من الروابط بين قطر وقطر من أقطار الوطن العربي ويوثّق هذه الروابط التي كونتها منذ القدم عوامل طبيعية حيوية أصيلة، اخذاً بعين الاعتبار وضع كل قطر من النواحي التاريخية والجغرافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية ترسيخاً لمقومات

(*) كتبت هذه المقالة في الرد على أحمد لطفي السيّد المتشكك في إمكانية قيام وحدة عربية.

الاتحاد كاملة». وإذا بدا أن عليا يحتفظ، وعلى نحو ضمني، «ببروسيا العرب» أو النواة في الاتحاد ذاك، إلا أنه يبدي وضوحاً كلياً في أن صيغة السعي نحو الاتحاد هي الدعوة «بالحسنى والقول الكريم وأساليب المنطق والاقناع... وبمختلف الوسائل الخيّرة»[٤٤]، وهو بالطبع تميّز واضح من التجربة القومية الألمانية والتجارب الأوروبية عموماً. ويتناول مشروع الاتحاد التفاصيل الداخلية بكليتها من طبيعة الحياة النيابية وطريقة عقد المعاهدات وسن القوانين وتوحيد النقد، وسواها من الإجراءات التنظيمية والتفصيلية.

وإذا كان هناك من سمة خاصة أو دالة ما في مشروع علي، وفي ما خص فكره السياسي بالذات، فهي تلك المرونة الواقعية التي تحكم تفكيره السياسي. والمرونة تلك ليست تنازلاً عن المبادىء والأصول وإنما هي، وعلى العكس تماماً، نتاج التمسك بتلك المبادىء والأصول والخوف من ضياعهما في زحمة ما يتغيّر أو يتبدّل. هي مرونة المشتغلين بالسياسة وتعقيداتها وأمورها والتي تميّزهم من أصحاب النظريات التي تقدّم القياس على النتيجة والمنطق على الوقائع. وواقعية علي تلك يمكن رصدها ومنذ نهاية الثلاثينات، في أكثر من جانب وقضية وهي أمر لافت وجدير بتأمله واستخلاص دروس مهمة منه. كذلك يبدو من اللافت في هذا الباب ملاحظة أن جيلا بكامله من القوميين، أو الذين غدوا قوميين، كان الأكثر نشاطاً وفاعلية في الميدان، الفكري والسياسي والعسكري، ومع ذلك فقد كان هذا الجيل مستعداً دائماً للحوار والنقاش والتفاوض والأخذ والرد وبكثير من المرونة والواقعية. أما الحكم على هذه المدرسة وفلسفتها السياسية فقد أصبح كما يبدو مبحثاً تاريخياً، في الغالب، بعد التطورات العاصفة التى تلت نكبة ١٩٤٨، وصعود مختلف التيارات إلى سدة الحكم في الوطن العربي، وفقدان الثقة بنوايا الغرب وأخيراً بالتحول التدريجي للقومية العربية نحو اتجاهات أكثر جذرية وراديكالية. هي مرحلة جديدة دون شك في سياق سيرورة الفكرة، تقوم إلى ما سبقها لكنها تمتلك بالتأكيد إضافاتها الخاصة. كما أنها ليست أكثر من لحظة عابرة أو مرحلة يجري اجتيازها، وستليها بالتأكيد مرحلة أو مراحل أخرى وستكون هي الأخرى مختلفة تماماً في همومها ومضامينها ومفاهيمها وشعاراتها. والواقعية في النهاية هي اعتراف بالعجز عن امتلاك كل الأوراق، وتسليم بحق الآخرين في بعضها، وبحق التاريخ في النهاية بالأوراق كلها. وعلى ذلك تبدو واقعية علي ناصر الدين، وبمعزل عن الصواب والخطأ، على كثير من المنطق والعلم والموضوعية. ●

الهوامش

(١) ولد في بمريم (قرب حمانا) سنة ١٨٨٨ وأدركته المنية في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤.

(٢) هو اللقب الذي عرف به بين رفاقه وأقرانه.

(٣) من كلمة فضيلة الشيخ عبد الله العلايلي في تأبين علي ناصر الدين في ١٨ أيار ١٩٧٥، والمثبتة في الكتاب الذي أصدرته لجنة إحياء ذكرى المجاهد علي ناصر الدين تحت عنوان: «المجاهد علي ناصر الدين صفحة مشرقة من التاريخ القومي العربي الحديث»، (ص ٨٠ ــ ٨١).

(٤) هو عنوان كتاب علي ناصر الدين الأكثر شهرة.

(٥) من كلمة الدكتور محمد علي الرز أمين عام «عصبة العمل القومي» في عهد أبي وائل، (المجاهد علي ناصر الدين... ص ٢٣).

(٦) نفسه، ص ٣١.

(٧) نفسه، ص ١٠٣.

(٨) من رفاق علي نذكر: الشيخ قسطنطين يني، الشيخ عبد الله العلايلي، الدكتور محمد خير النوري، الأستاذ ناظم القادري، المحامي فهيم خوري وآخرين.

(٩) في مطلـع محاضرته في منتدى دار الأيتام الإسلامية في بيروت في نيسان ١٩٤٩ حيث يقول: «كنت عاهدت نفسي بعد النكبة ووفيت على أمور منها أن لا أحاضر ولا أخطب ولا أحضر حفلة أو اجتماعاً إلا أن يكون الغرض من هذا كله البحث الجدي في محو العار... أو الثأر».

(١٠) يلاحظ فيصل جلول: «أن الحركة (حركة القوميين العرب) وقادتها قد خضعوا مبكراً لآراء أحد أساتذتهم الدكتور قسطنطين زريق ولعلي ناصر الدين المهتم بالعمل القومي وعضو عصبة العمل القومي وأحد مؤسسيها... فنزولاً عند نصيحة علي ناصر الدين...إلـخ» (الفكر العربـي، عدد ٢٨، ص ١٨٣).

(١١) سلسلة «الثائرون العرب في التاريـخ» صدر منها. «أذينة والزباء»، «الملك سيف»...

(١٢) في طبعات ثلاث، الأولى ١٩٤٦ والأخيرة ١٩٦٣.

(١٣) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ٢٤.

(١٤) نفسه، ص ٢٤ ــ ٢٥.

(١٥) يقول علي في مقدمة قضية العرب إن فصول الكتاب كتبت بين سنتي ٤٣ و ٤٤ رغم أنه لم يصدر حتى سنة ١٩٤٦.

(١٦) علي ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، (طبعة أولى، بيروت، ١٩٥٢)، ص ١٨٩.

(١٧) نفسه، ص ١٣٥.

(١٨) نفسه، ص ٤٩.

(١٩) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ٧.

(٢٠) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ٤٩.

(٢١) نفسه، ص ٥٠.

(٢٢) نفسه، ص ٣٤.

(٢٣) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ١٣٢.

(٢٤) نفسه، ص ٢٥١.

(٢٥) نفسه، ص ٢٤٨.

(٢٦) ناصر الدين، قضية العرب، ص ٧٨ ــ ٧٩.

(٢٧) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ٥٢ ــ ٥٤.

(٢٨) نفسه، ص ٢٦٥.

(٢٩) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ٢٨١.

(٣٠) نفسه، ص ٦١، ٦٣، ٩١ وسواها.

(٣١) نفسه، ص ٩١ ــ ٩٢.

(٣٢) نفسه، ص ١٢٩.

(٣٣) المجاهد علي ناصر الدين، ص ٣٨.

(٣٤) نفسه، ص ١٤ ــ ١٦.

(٣٥) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ٢٦٠.

(٣٦) نفسه، ٢٦٣ ــ ٢٦٤.

(٣٧) نفسه، ٢٦٤ ــ ٢٦٥.

(٣٨) ألبرت حوراني، الفكر العربـي في عصر النهضة، ص ٢٦٧.

(٣٩) نفسه، ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٤٠) ناصر الدين، قضية العرب، ص ٤٢.

(٤١) نفسه، ص ٤٢.

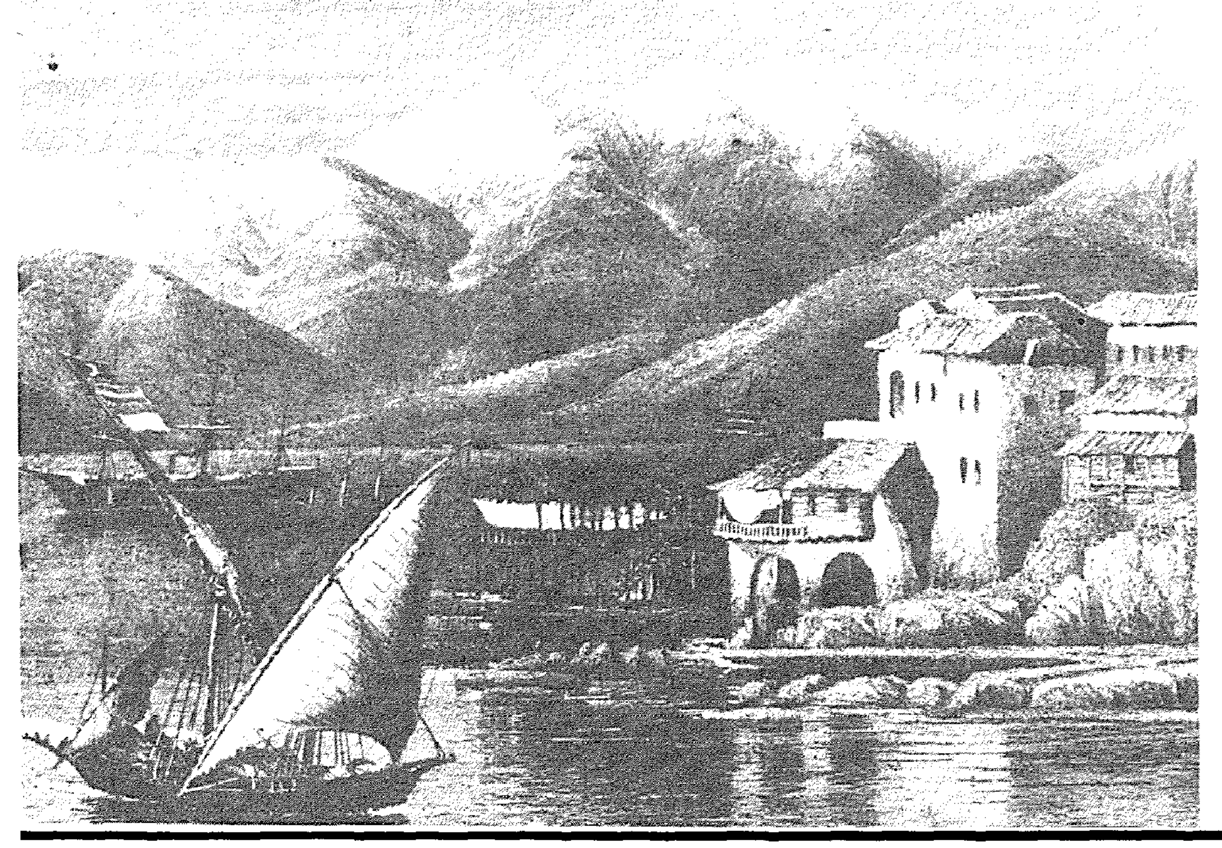
(٤٢) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ٢٦٣.

(٤٣) ناصر الدين، قضية العرب، ص ١٩٤.

(٤٤) نفسه، ١٩٦.



أبــراج وقــلاع وتحصينات بَيروت العثمانيّــة



□ عين المريسة في أوائل القرن التاسع عشر.

د. حسّـان حـلاق

تعتبر بيروت عبر تاريخها الطويل من المدن العسكرية ومن المناطق الاستراتيجية، وكانت محط أطماع الدول والغزوات الخارجية. لهذا اعتُني بتحصيناتها لحمايتها من الهجمات والغزوات. وقد أشار الكونت دومنيل دوبويسون إلى أن التحصينات والاستحكامات التي امتازت بها بيروت كانت تنقسم إلى أربعة أقسام وهي:

١ ــ التحصينات العربية الإسلامية قبل الصليبيين.

٢ ــ التحصينات الصليبية.

٣ ــ التحصينات التي أقامها الأمير فخر الدين الكبير.

٤ ــ التحصينات العثمانية وقد أقام معظمها أحمد باشا الجزار والي عكا في أواخر القرن الثامن عشر.



والحقيقة فقد أشار ابن حوقل في كتابه «صورة الأرض» والمقدسي في «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» بأن بيروت مدينة محصنة منيعة السور دون الإشارة إلى ذكر تحصيناتها. أما ابن بطوطة فلم يذكر شيئاً عن بيروت في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» سوى أنها «مدينة صغيرة، حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه».

وكان الملك «بودين» قد فتح ثغر بيروت المحصن بعد مقاومة عنيفة في ١٣ أيار (مايو) ١١١٠م. وكان قد وصف بيروت عام ١٢١٢م السائح «ولبرند دي أولد نبرغ» مشيراً إلى وجود عدة أبراج فيها ومما قاله: «يمنع البحر بيروت من جهتها السفلى مع ما هناك من الصخور العالية، وتحميها من الجهة الأخرى خنادق مبلطة تحت حراسة سورين متينين فيهما عدة أبراج غاية في الشدة تبطل كل ضربات العدو. وكانت كل هذه الاستحكامات استوجبت أشغالاً طويلة ولا سيما أن نقوشها الداخلية بلغت النهاية في الحسن والإتقان».

وأشارت المصادر التاريخية إلى قلعة بيروت وتحصيناتها لا سيما عندما وقعت مشاحنات بين الامبراطور فريدريك الثاني وبين صاحب بيروت جان ديبلين عام ١٢٣١م. وقد تحصن صاحب بيروت في قلعتها فحاربه عسكر الامبراطور وحاصروه، وكادوا يفتحون القلعة عنوة لولا أن مساعدة قدمت لصاحب بيروت فاضطر جنود الامبراطور للفرار.

وبقيت بيروت وصيدا في حوزة الصليبيين إلى أن فتحها الملك المنصور قلاوون عام ١٢٩١م وبها انتهت دولة الفرنج في الشام.

أما في العهد العثماني فقد أقيمت بعض التحصينات في بيروت في عهد الأمير فخر الدين الثاني الكبير أمير بيروت والجبل وبعض المناطق اللبنانية، وفي عهد بعض الولاة العثمانيين لا سيما في عهد أحمد باشا الجزار والي عكا. ففي أواخر القرن الثامن عشر قام الجزار بتحديد استحكامات وتحصينات سور بيروت. وأقام حصناً جديداً في مكان الحصن القديم، وأتم أسوار المدينة ليحميها من الغارات الداخلية والخارجية.

وفي عهد ابراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر (١٨٣٠ ـ ١٨٤٠) لم يهتم الحاكم المصري كثيراً بهذه الاستحكامات لا سيما وأنه سعى إلى توسيع وتطوير بيروت لتكون خارج السور. وكانت أسوار بيروت في عام ١٨٤٠ تتخللها الثغرات، وأصبحت غير متواصلة. وفي عام ١٨٨٧ تلاشت آثار المرفأ القديم والأسوار المشيدة قرب البحر. وفي عام ١٩١٦ أمر جمال باشا قائد الفيلق التركي الرابع ووالي بيروت عزمي بك بفتح شوارع جديدة وسط مدينة بيروت، فكان ذلك سبباً لإزالة البقية الباقية من الأسوار والآثار.

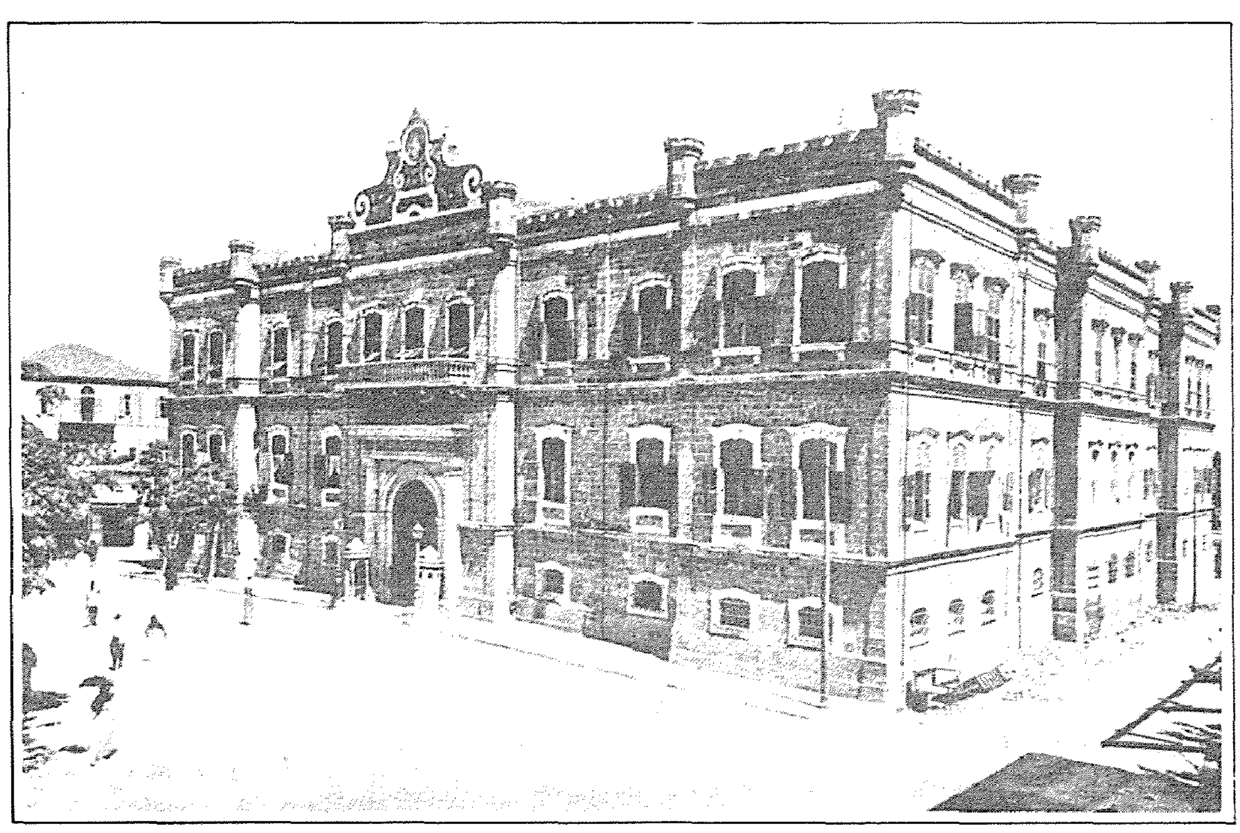
ومن الناحية التاريخية فقد كان يتخلل سور بيروت بعض الأبراج والتحصينات العسكرية العاملة في حماية بيروت. كما كان يوجد خارج السور بعض الأبراج العاملة للغاية ذاتها، علماً أن بيروت شهدت وجود الكثير من الأبراج المدنية التي سميت بأسماء العائلات، وقد استغلت لغايات مدنية وعسكرية على السواء لا سيما في حالات الطوارىء. من هذه الأبراج والقلاع التي عرفتها بيروت عبر تاريخها:

قلعة أو برج بيروت

كانت قلعة بيروت أو البرج البحري مقراً للحاميات العسكرية العثمانية، وهي بتاريخها تعود إلى ما قبل عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. وكان موقعها في الجنوب الشرقي من مدخل مرفأ بيروت فوق محلة ومقبرة الخارجة. وكان بين البرج البحري والرصيف جسر جميل تسنده قناطر مقوسة. وقد اشتهرت هذه القلعة بمناعتها وأهميتها الاستراتيجية نظراً لموقعها المباشر على البحر، وهي بذلك تشبه قلعة قايتباي في الاسكندرية.

وكانت هذه القلعة مبنية من الحجارة الضخمة التي لا تتأثر كثيراً بالعواصف والرياح والأنواء وهواء البحر، ومجهزة في الداخل بأدوات حربية وبالمواد النفطية المتفجرة، وكان يعلو أسوارها المنجنيق وفيما بعد المدافع الحربية.

وكانت قلعة بيروت مقراً للحامية العثمانية في المدينة، وقد توالت بعض الأسر البيروتية التي



□ السراي الصغير في عهد الانتداب حيث تظهر الأبراج العسكرية.

تميز أفرادها بالقوة والشجاعة والاشتغال بالأعمال العسكرية منصب «قلعجي» أو حاكم القلعة والمعروف باسم «دزدار قلعة بيروت» ومن بين هذه الأسر: أسرة قوتلي، أسرة الجندي ديه، وأسرة القلعجي وسواها من الأسر البيروتية.

وروت السيدة المرحومة سعود صالح طبارة — قبل وفاتها — وهي زوجة قاسم القوتلي، بأن بعض قرصان البحر الأوروبيين هاجموا قلعة بيروت فجأة، فتصدى لهم جيش القلعة ووقعت بين الفريقين موقعة شديدة، شاركت فيها نساء بيروت إلى جانب الرجال دفاعاً عن بيروت وقلعتها. وانتهت المعركة بانتصار البيروتيين. وقد احتفظت سعود في حينه بسيف كان يتقلده أحد القراصنة، واحتفظ حفيدها ابراهيم قاسم القوتلي — الموظف في بلدية بيروت عام ١٩٥٧ — بهذا السيف الأثري.

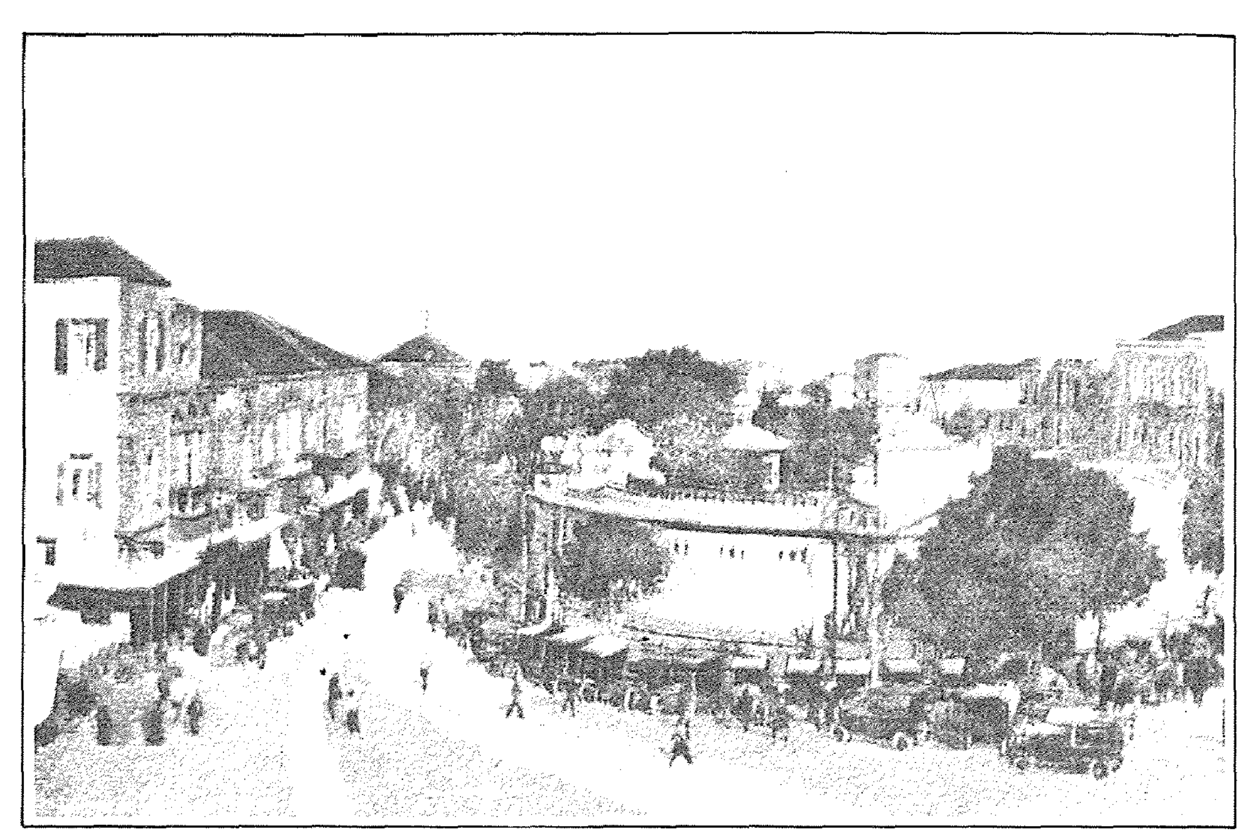
وكان قد تولى مسؤولية قلعة بيروت، في القرن الثامن عشر الميلادي الشيخ عبد السلام العماد والشيخ حسن تلحوق، ولكن عندما وقعت بعض الحوادث عام ١٧٧٢م، واستتب الأمر في بيروت للأمير يوسف الشهابي، قام هذا الأمير بعزل العماد وتلحوق عن مسؤولية القلعة لميلهما لأحمد باشا الجزار، وأصدر قراراً عين بموجبه أحد وجوه بيروت صادق ديه. ولما خضعت بيروت للحكم المصري، عين ابراهيم باشا قبيل انتهاء حكمه عام ١٨٤٠ عبد الله أبو ديه متسلماً على بيروت، وكان أن تولى منصب «دزدار قلعة بيروت» في عهد الجزار.

هذا وقد ظلت قلعة بيروت قائمة بجدرانها القديمة إلى أن دمرتها الأساطيل المتحالفة: الانجليزية، الروسية، والنمساوية عام ١٨٤٠ في قصفها على الجيش المصري لإخراجه من بيروت، بالقوة.

ويرى بعض المؤرخين بأن جامع المجيدية في باطن بيروت، كان قلعة قبل تحويله إلى جامع في عهد السلطان عبد المجيد. ولهذا سمي بالمجيدية، وموقعه في محلة ميناء الخشب إزاء البحر.

برج الأمير جمال

يعتبر هذا البرج من أهم الأبراج العادلة لحماية بيروت المحروسة، ويعود تاريخه إلى عام



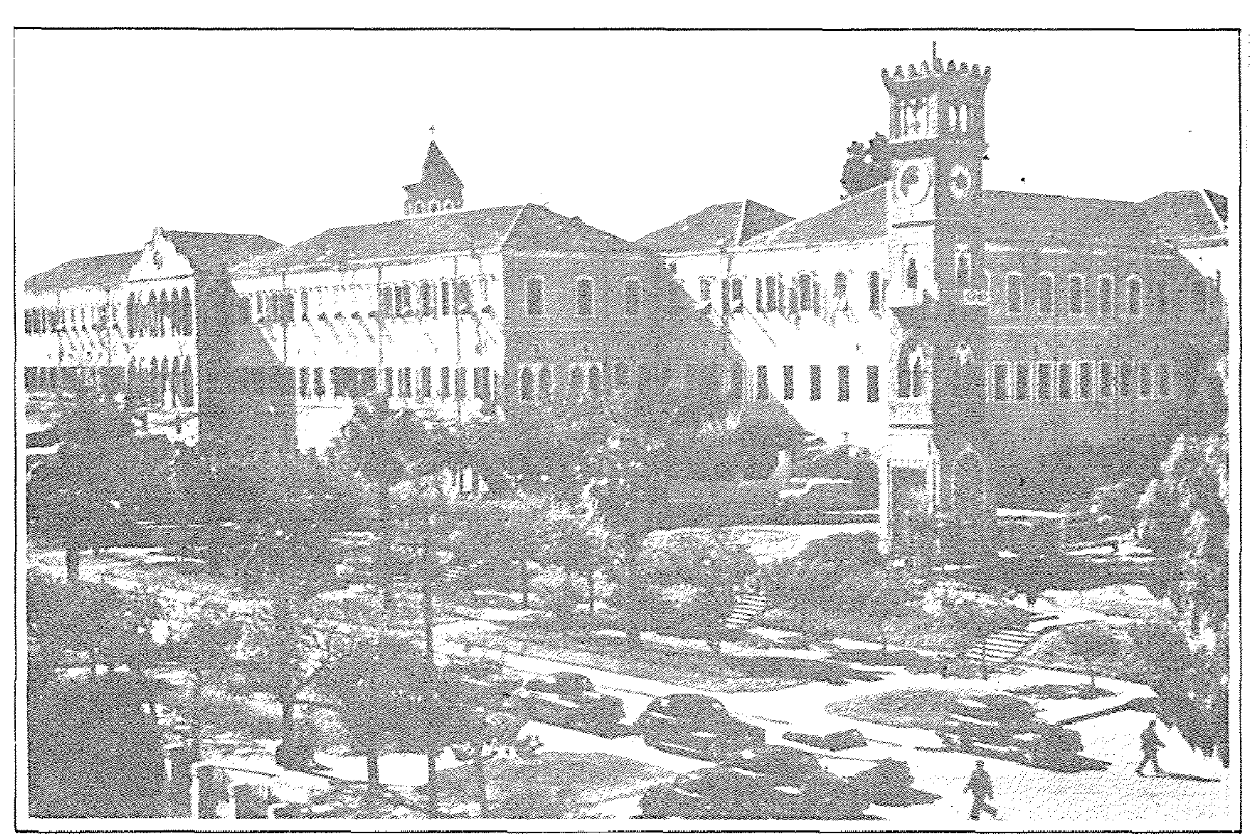
□ برج ساحة البرج «برج الكشاف» في مطلع القرن العشرين.

١٦١٧م. وقد ورد ذكره في كتاب الشيخ أحمد بن محمد الخالدي الصفدي «لبنان في عهد الأمير فخر الدين» بقوله: «وكتب أيضاً [أي الأمير فخر الدين] إلى جميع أهالي بلاد الشوف ليجوا إليه بالعدد، وأرسل بلوكباشيين بنفرهما مسكوا برج بيت الأمير جمال الدين في مدينة بيروت، لأنه برج منيع وحاكم على جميع المدينة والبيوت». وينسب هذا البرج إلى الأمير جمال الدين الكبير الجندي، وهو الأمير جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي أحد ولاة بيروت في القرن السابع الهجري، على حد ما جاء في كتاب صالح بن يحيى «تاريخ بيروت».

برج الكشّاف

موقع هذا البرج في المنطقة المشهورة المعروفة باسم «البرج» أو ساحة البرج في باطن بيروت وخارج سورها القديم، وهي الساحة المعروفة باسم ساحة الشهداء. وقد عرف هذا البرج باسم البرج الكبير. وهو بناء ضخم ارتفاعه ما بين ٦٠ إلى ٨٠ قدماً، وسماكة جدرانه اثنا عشر قدماً. ويعود تاريخ بنائه إلى عهد الملك الظاهر برقوق (٧٨٤ ــ ٧٩١هـ) (١٣٨٢ ــ ١٣٨٩م) وقد أشار صالح بن يحيى إلى هذا البرج بقوله: «... وفي أيام السلطان الملك الظاهر برقوق عمّر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من أبراج القلعة الخراب فقرروا به المجاهدين» ويستدل من هذا القول بأن هذا البرج أقيم على أنقاض إحدى قلاع بيروت المخرَّبة.

وقد أطلق على هذا البرج اسم برج الكشّاف، لأنه كان يكشف تحركات الأعداء القادمين من البحر. وكان قريباً من سراي الأمير فخر الدين المعني، وعرف أيضاً باسم البرج الكبير. ولما ضرب الروس سور بيروت عام ١٧٧٣ بين باب السراية وباب أبي النصر. وبعد أن أطلقوا مدافعهم على المدينة وفشلوا في السيطرة عليها، اضطروا إذ ذاك إلى إنزال أحد مدافعهم الضخمة وأدخلوه إلى داخل المدينة قرب برج الكشاف، ومنذ ذاك الحين عرف مكان ضرب الروس للأسوار وإنزال مدافعهم فيه باسم ساحة المدافع (Place des Canons) علماً أن البعض



□ السراي الكبير في الخمسينات من القرن العشرين ويظهر أمامه «برج الساعة».

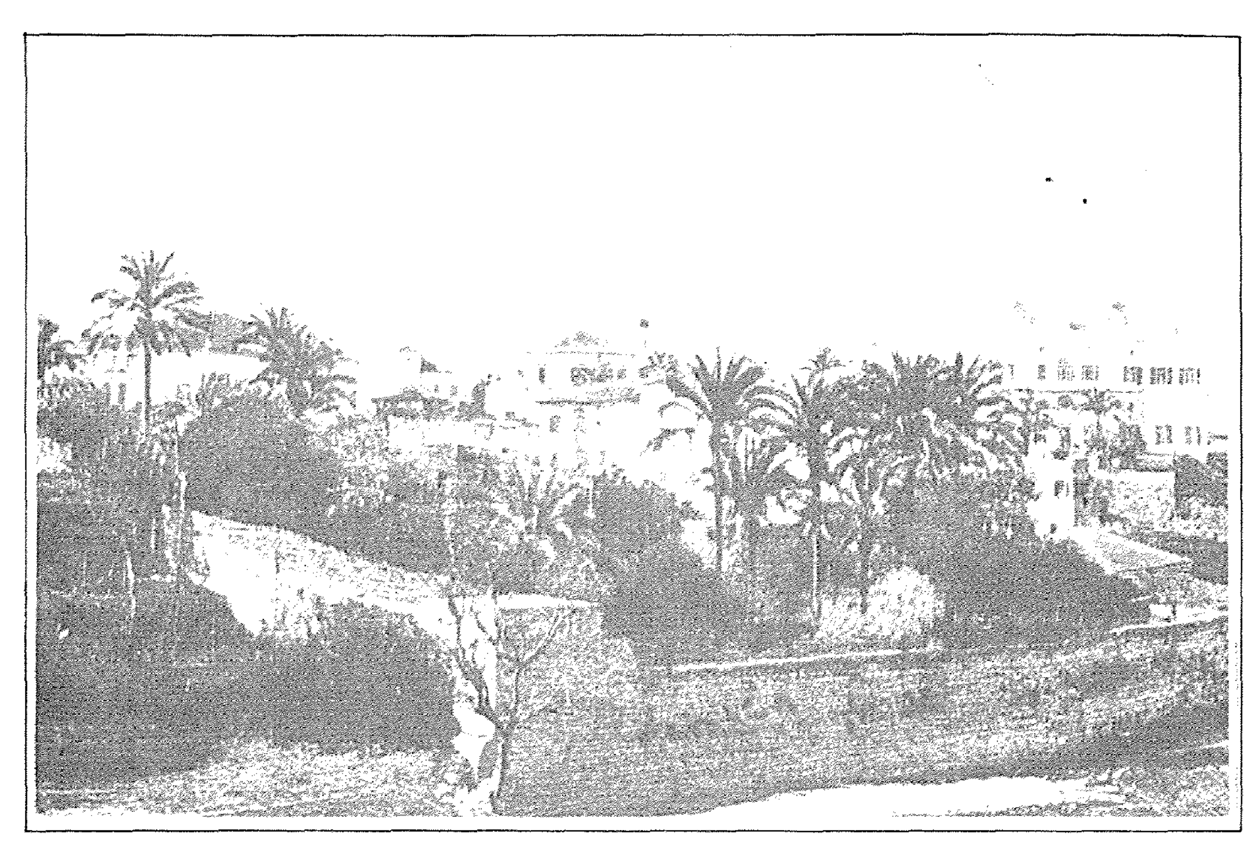
يرى بأنه سمي بهذا الاسم نسبة للفرنسيين الذين أنزلوا مدافعهم في هذه الساحة عام ١٨٦٠ يوم دخولهم لبنان. كما أطلق على الساحة فيما بعد اسم الشهداء بعد أن أعدم جمال باشا عامي ١٩١٥ و١٩١٦ قوافل من القيادات والزعامات اللبنانية العاملة ضد الأتراك. علماً أن سجلات المحكمة الشرعية في القرن التاسع عشر تشير إلى الساحة باسم ساحة الشهداء.

وكان يوجد في هذا البرج ثكنة عسكرية هامة من أهم الثكنات العسكرية، يتولى الحراس من أعلى الأمكنة حراسة البرج والمدينة. وكان يوجد منفذ سري يربط تحت الأرض ما بين السور والبرج.

ومما يؤسف له أن هذا البرج قد دب فيه الخراب على غرار أكثر الآثار البيروتية. وما بقي في بيروت من آثار حي أقل بكثير مما كانت تزخر به هذه المدينة. وقد بدأ التآكل فيه يظهر في عهد ابراهيم باشا وقد أشار إليه بعض الرحالة عام ١٨٠٨ على أنه في طريق الاندثار. ولكن الوقائع والصور الفوتوغرافية تؤكد أن القسم الجنوبي وقسماً من الجهة الشرقية والغربية للبرج كان لا يزال موجودا في مطلع القرن العشرين والقسم المتبقي يشكل قسماً دائرياً. والمطلع على تلك الصور يرى السيارات الحديثة مع عربات مصطفة إلى جانبه. ولما كانت بيروت قد عرفت السيارات ابتداء من أوائل القرن العشرين، فمعنى ذلك أن بعض أقسام البرج كان لا يزال موجوداً.

برج البعلبكية

موقع هذا البرج إزاء البحر بمحاذاة برج السلسلة ويعود تاريخه إلى العصور الوسطى. وفي ذلك يقول صاحب كتاب «تاريخ بيروت» في البرج ما يلي «ولما جدد الأمير بيدمر نايب الشام سور بيروت على جانب البحر أوله من عند الحارة التي لنا على البحر [قرب حارة السنطية] واصلاً إلى تحت البرج الصغير العتيق عمارة تنكز نايب الشام، وتعرف ببرج البعلبكية. وجعل بين آخر هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركّب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج وسمي باب السلسلة». لذا يسميه البعض برج السلسلة أو برج الميناء لقربه من



□ حي السراسقة حيث يظهر «برج سرسق» في مطلع القرن العشرين.

ميناء بيروت، وقد هدمته شركة مرفأ بيروت بعد نيلها امتياز إنشاء المرفأ ابتداء من عام ١٨٨٧.

ويطلق عليه اسم برج البعلبكية لأن أجناد قلعة بعلبك كانت تتجرد إلى بيروت إبدالاً كل بدل شهر، ويأتي كل بدل من بعلبك كل سنة للغزو في البحر والدفاع عن الثغور، كما جاء في صالح بن يحيى «تاريخ بيروت» علماً أن الكونت دوبويسون رأى أنه سمي ببرج البعلبكية نسبة إلى مهندسه أبي بكر بن البصيص البعلبكي.

برج السلسلة والفنار

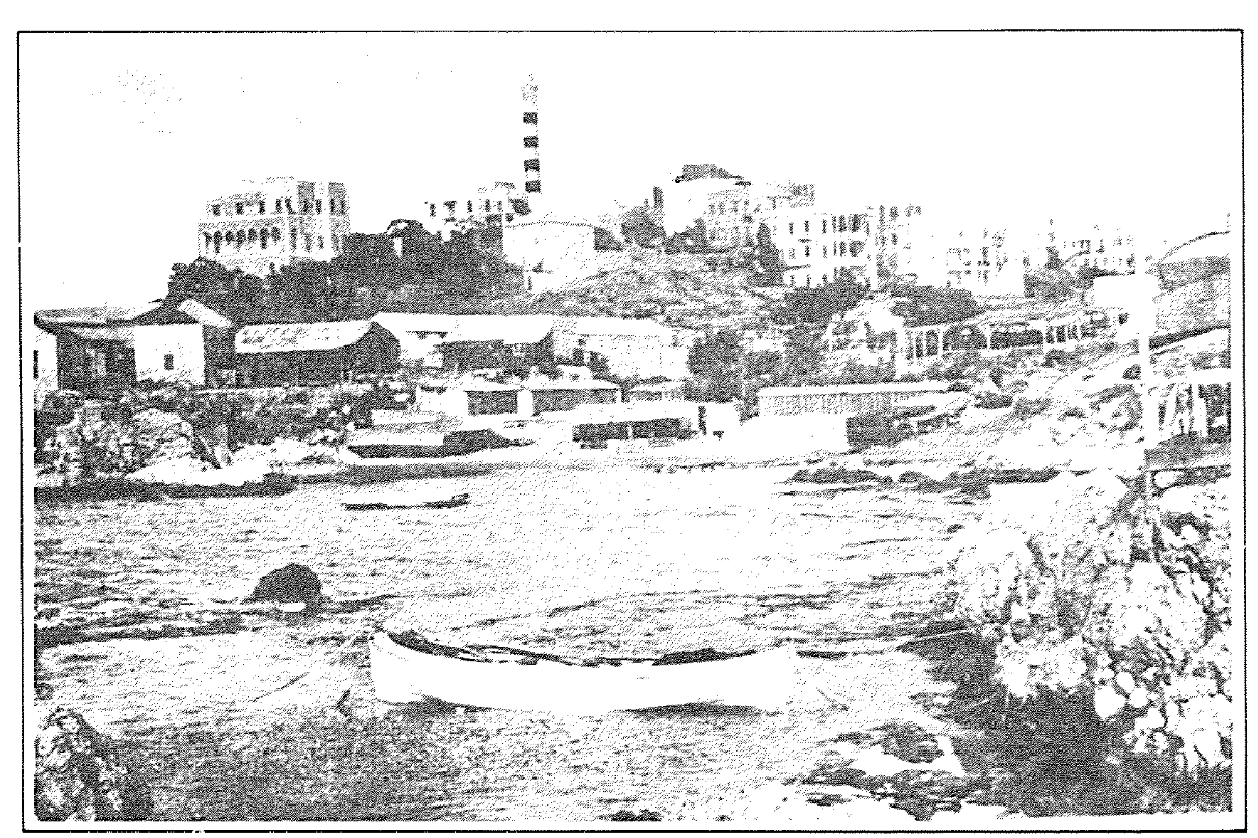
كان يوجد في داخل المرفأ برجان متقاربان، الأول هو برج الفنار، ويقوم على صخرة منفردة ضخمة فوقها فنار، ويبعد عن البر مسافة خمسة وعشرين متراً. أما برج السلسلة الذي يرى البعض بأنه هو ذاته برج البعلبكية فيتصل باليابسة برصيف هدمته عاصفة أتت على شاطىء مرفأ بيروت عام ١٨٤٩، وساعد في اندثاره شركة مرفأ بيروت التي نالت امتيازها عام ١٨٨٧. وكان برج الفنار وبرج السلسلة يتقابلان، وتقوم بينهما سلسلة، فلا يدخل إلى الميناء أو يخرج من السفن إلا بعلم الجنود والحراس. هذا ويطلق على برج السلسلة أيضاً اسم «برج الميناء».

البرج البحري

كان يسمى أيضاً برج الحشيش، وكان بمحاذاة البحر، خصص للدفاع عن بيروت المحروسة. ولهذا تميز بكثرة المؤن والذخائر الحربية وكان مجهزاً بخمسة مدافع وعدد من الجنود. ووجد بالقرب منه خان الملاحة ومسجد سيدي البدوي وخان البربير ومسجد الدباغة. وقد أشار إلى ذلك فؤاد دباس في كتابه: (Beyrouth, Notre Mémoires) في حين يذكر دوبويسون بأن برج الكشاف هو المعروف باسم برج الحشيش.

برج الغلغول

يسمى هذا البرج أيضاً باسم برج الشلقون باسم الأسرة التي امتلكته في أوائل القرن الثامن عشر في ساحة دير العازارية للأيتام الصبيان في داخل بيروت. ولقد حدث في عام ١٦٦٧ أن وقعت



□ منطقة المنارة حيث تظهر منارة بيروت وبرجها ومنطقة الحمام العسكري.

معركة عند البرج بين اليمنية والقيسية قتل خلالها عبد الله بن قايد بيه ابن الصواف مقدم اليمنية.

برج القشلة

وموقعه مكان القشلة أي الثكنة العثمانية. وقد أقامت الحكومة العثمانية مكانه عام ١٨٥٣ ثكنة للجند. وهذه الثكنة هي التي حولت منذ عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ ومن ثم عهد الاستقلال عام ١٩٤٣ إلى مقر للحكومة اللبنانية. وقد عرفت باسم السراي الكبير تمييزاً لها عن السراي الصغير (الذي هدم عام ١٩٥١ وكان موقعه مكان سينما ريفولي وساحتها) وقد تميز السراي الصغير بكثرة أبراجه العسكرية بهدف المراقبة والاستطلاع.

برج الباشوراء أو برج العريس

وموقع هذا البرج جنوبي سور بيروت أي جنوبي بيروت القديمة فوق السور، في المنطقة المعروفة باسم الباشوراء التي تقع فيها جبانة الباشوراء. ومن ملامحها قبر أحمد حمدي باشا والي سوريا. وقد سميت بالباشوراء وجمعها بواشير بمعنى سد من التراب. ويذكر بأن برج الباشوراء هو ذاته المسمى برج العريس الذي كان أحد الأبراج العاملة في حماية بيروت. وقيل بأن هذا البرج كان يتصل بمغارة تنفذ إلى محلة المزرعة جنوباً.

برج أبي حيدر

يقع برج أبي حيدر في جنوبي بيروت القديمة على قمة ربوة عالية تكشف بيروت بشكل واضح. وموقعه بالقرب من منزل مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا. وقد أخطأ بعض المؤرخين عندما ظنوا أن برج أبي هدير هو ذاته برج أبي حيدر، ذلك لأن سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة كشفت لنا عن معلومات هامة، وهي أن موقع برج أبي هدير في الجهة الشرقية من بيروت إزاء منطقة الخضر والكرنتينا. في حين أن برج أبي حيدر يقع فوق منطقة المصيطبة، وينسب إلى أسرة أبي حيدر.

برج الخضر

وموقعه ظاهر بيروت شرقي المدينة بمحاذاة البحر. وقد أشار الرحالة جون كارن عند وصفه لبيروت ما يلي: «... على الهضبة الصغيرة إلى وراء يتجلى برج قديم يقال أنه قريب من الحقل الذي ذبح به القديس جاورجيوس التنين...».

برج حمود

وموقع هذا البرج بالقرب من برج الخضر شرقي بيروت قريباً من الساحل. وقد أقامه أمراء آل حمود المغاربة الأندلسيين الذين وفدوا إلى بيروت ومدن الشام للدفاع عنها ضد الصليبيين. وكان أمراء آل حمود قادة على ثغر بيروت وبعض الثغور الشامية. وقد سكن بعضهم في برج الكشاف خارج سور بيروت العثمانية.

برج الحصن

وموقعه في محلة الحصن قريباً من منطقة الفنادق غربي بيروت في الموقع المعروف باسم ميناء الحصن. وقد أشارت سجلات المحكمة الشرعية إلى أنه ميناء الحِسن بالسين وليس بالصاد.

أبراج رأس بيروت والحمراء

تميزت منطقة رأس بيروت ومن ثم منطقة الحمراء بكثرة الأبراج المدنية والعسكرية والتي سميت بغالبيتها بأسماء العائلات البيروتية من بين هذه الأبراج:

برج الحمراء

وموقعه في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم «الحمراء» نسبة إلى أمراء بني الحمراء أمراء البقاع، وهم أول من توطنوا هذه المنطقة قبل عام ٥٣٩هـ، ومن أشهرهم الأمير الشيخ محمد الحمراء. وكانت النار تشعل في قمته لإعلام دمشق بالتتابع مع عدة أبراج أخرى بأن خطراً داهماً على ثغر بيروت، بهدف طلب المساعدة.

برج شاتيلا

وموقعه جنوبي غربي منارة بيروت (المنارة) وقد اتخذ اسمه نسبة لأسرة شاتيلا البيروتية.

وقد ذكر الرحالة دارفيو في سنة ١٦٦٠م برجا عالياً على الشاطىء قرب المنارة. وقال إن الرقيب الحارس يظل فيه صباح مساء ليعطي الإشارة عند اقتراب السفن إلى اليابسة.

وقد وجد في المنطقة ذاتها برج المنارة الشهير الذي بني عام ١٨٢٠ لهداية السفن ولأغراض أمنية أيضاً.

برج قدورة

يقع في رأس بيروت قرب كنيسة الوردية حالياً (أول الحمراء) وكان هذا البرج يستخدم للأغراض العسكرية دفاعاً عن أمن بيروت وللأغراض المدنية للعائلة.

برج اللبّان

وموقعه في شارع الحمراء خلف المحلات التجارية المعروفة باسم (A.B.C.) وقد أشار السفير السابق سليم اللبان بأن هذا البرج كان يستخدم لأغراض عسكرية للدفاع عن بيروت العثمانية، وأن تصميمه كان تصميماً عسكرياً حيث وجدت فيه أماكن للذخيرة ومراكز للمراقبة، ووجد في أعلاه مدفع لا تزال بقاياه موجودة إلى اليوم في منزل العائلة. والمعروف أن تلك المنطقة في الحمراء تعرف باسم منطقة اللبان إلى اليوم.

برج البواب

وينسب هذا البرج إلى أسرة البواب البيروتية، وكان موقعه في رأس بيروت على شاطىء البحر.

برج دعبول

وهو برج الشيخ دعبول أحد أجداد أسرة دعبول. وكان موقع هذا البرج شمالي سراي الحكومة اليوم (مدرسة الصنائع سابقاً) وبالتحديد حيث المصرف المركزي اليوم.

برج ربيز

ينسب هذا البرج إلى أسرة ربيز المتوطنة قديماً ــ ولا تزال ــ في منطقة رأس بيروت. وكان موقعه حيث اليوم شارع عمر بن عبد العزيز في شارع الحمراء بالقرب من مقهى

المودكا.

برج شهاب

وموقعه قرب برج اللبان في منطقة الحمراء بالقرب من محلة وسينما الكومودور حالياً. وينسب إلى أسرة شهاب المتوطنة ـــ ولا تزال ـــ قديماً في تلك المنطقة.

برج شاتيلا الثاني

وهو غير برج شاتيلا في رأس بيروت. وقد وجد البرج الثاني في منطقة ساقية الجنزير بالقرب من الحرج القديم ـــ الذي اندثرت معالمه ـــ والذي كان يتوسط المنطقة.

برج عرمان

وينسب إلى أسرة عرمان، وموقعه في شارع المعماري قرب آل الأرقش خلف مبنى جفينور.

ومن الأبراج العائلية الأخرى:

برج دندن

تشير سجلات المحكمة الشرعية في بيروت إلى برج دندن في باطن بيروت حيث ساعة المعرض القديمة والبرلمان اللبناني. ويوجد برج دندن آخر في منطقة غربي كركول العبد في طريق الشام جنوبي كنيسة السريان الكاثوليك. وينسب هذا البرج إلى الأمير دندن شقيق الأمير فياض الذي جاء مع الأمير فخر الدين المعني عند عودته عام ١٦١٨ من طرابلس الشام وبلاد جبيل والبترون. وتنسب عائلة دندن البيروتية إلى الأمير دندن. وكان هذا البرج قد تآكل، ولم يبق منه سوى بعض الأطلال في عهد الحكم المصري في بيروت والشام.

برج بيهم

وموقع هذا البرج في محلة المصيطبة جنوبي بيروت القديمة بالقرب من برج أبي حيدر. وقد سمي باسم أسرة بيهم البيروتية. وهو من أبراج المدينة. وقد بنى الحاج حسين بيهم العيتاني الطابق الأرضي في منزله على أنقاض ذلك البرج. وسكن هذا المنزل أمين بيهم رئيس بلدية بيروت السابق وشقيقه صادق ولدا أحمد مختار بيهم وحفيدا الحاج حسين بيهم. كما سكن في المحلة ذاتها المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم.

برج سلام

وهو من الأبراج المدنية، وموقعه في محلة المصيطبة جنوبي بيروت العثمانية، وينسب لأسرة سلام، ولصاحب الدار سليم بن علي بن عبد الجليل بن محمد سلام البيروتي والد الرئيس صائب سلام. ويلاحظ بأنه يوجد في الجهة الشرقية وفي الجهة الغربية الأبراج التي يُطل منها على بيروت ومشارفها.

برج فايد

وهو من الأبراج المعروفة في بيروت العثمانية. وينسب لأسرة فايد البيروتية وموقعه في المنطقة الواقعة بين المصيطبة وكركول الدروز.

أبراج سرسق

وهي من الأبراج المدنية الواقعة في شرقي بيروت العثمانية حيث تظهر الأبراج في أعلى مبنى أنيق من طابقين. كانت تستخدم لأغراض التمتع بمناظر بيروت الخلابة. وينسب إلى أسرة سرسق المعروفة.

برج البراجنة

وموقعه في ظاهر بيروت وضاحيتها الجنوبية في وسط سهلي حيث تنبسط الأرض أمامه باتجاه البحر غرباً وباتجاه الجبل شرقاً وباتجاه صيدا جنوباً وباتجاه بيروت القديمة شمالاً. وقد أقيم في العصور الوسطى زمن المماليك البرجية لأغراض عسكرية وللدفاع عن بيروت وضواحيها.

برج شعبان

وموقعه في محطة الديك بموضع عيادة الدكتور عبد الرحمن سنو. وينسب لأسرة شعبان.

برج سيور

ينسب لأسرة سيور، وموقعه في باطن بيروت حيث سوق سيور المشهور. وقد بني عام ١٨٥١ وكان صاحبه يوسف سيور. وأشار إليه الشيخ

□ عملية بيع وشراء يظهر فيها إشارة إلى برج حمود وبرج وباب السلسلة في بيروت في غرة ربيع الأول ١٢٥٩هـ[١].

(١) سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة، سجل ١٢٥٩هـ، صحيفة ١٠. (مجموعة د. حسان حلاق الوثائقية).

ناصيف اليازجي بقوله:

قد شاد هذا البرج يوسف عصره
من آل سيور الأكارم ينسب
قالت لدى الباب المؤرخ وقده
هذا لنا برج وهذا كوكب

برج القرقوطي

ينسب لأسرة القرقوطي، وموقعه في حي مار نقولا بالقرب من حي السراسقة في شرقي بيروت بالقرب من منزل موسى سرسق وقد هدم هذا البرج عام ١٩٥٣ ليبنى مكانه السفارة الإيطالية. وكان البرج يتألف من طبقتين شأن بقية الأبراج، فكانت الطبقة السفلى للدواب والعلف والذخيرة والمؤن، بينما الطبقة العليا للسكن والحراسة.

ومن الأبراج الأخرى الموجودة في باطن بيروت وفي ظاهرها:

برج أم دبوس

يذكر الشيخ طنوس الشدياق في كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» بأن هذا البرج المستدير بنته زوجة الأمير أحمد الشهابي المكناة «أم دبوس» وموقعه بجانب السور، وقد بنته عام ١٧٤٩م.

برج المجيدية

وهو المعروف اليوم بجامع المجيدية، وكان قلعة وحصناً من حصون بيروت وبرجاً هاماً من أبراجها لحماية بيروت. وكان موقعه إزاء البحر قرب ميناء الخشب.

البرج الجديد والبرج القديم

أشارت سجلات المحكمة الشرعية في بيروت إلى وجود أبراج باسم البرج الجديد والبرج القديم. أما البرج الجديد فقد بناه الأمير مراد منصور فوق طاقة القصر في عام ١٧٤٩ تقريباً. وأشار البعض إلى أن موقعه على ربوة إزاء الكنيسة الإنجيلية في محلة بوابة يعقوب عند طلعة الأميركان جنوبي السراي الكبير. بينما يذكر دوبويسون بأن البرج الجديد يقع إزاء برج الكشاف في الزاوية الجنوبية الغربية وله تحصينات مثله.

أما البرج القديم فكان موقعه في مزرعة القنطاري (محلة القنطاري). ولا بد من الإشارة إلى أن تسمية القديم والجديد هي تسمية نسبية تبعاً للتاريخ الذي وجد فيه البرج أو هدم فيه، وتبعاً لبناء أبراج جديدة، حيث أن الرحالة والمؤرخين قد كتبوا في عهود متفاوتة ولهذا فإن تسمية البرج الجديد أو البرج القديم أطلقت في اكثر من عهد وفي أكثر من موضع.

برج الساعة في السراي

من الأبراج الهامة ــ التي لا تزال قائمة إلى اليوم ــ برج الساعة الكائن في الثكنة العثمانية ــ السراي فيما بعد ــ وقد سعى ببنائه الشيخ عبد القادر قباني رئيس بلدية بيروت آنذاك وهذا البرج يعتبر من الأبراج المدنية ولغايات مدنية.

أبراج عسكرية أخرى

أشارت المصادر التاريخية إلى أنه كان يوجد في بيروت خمسة أبراج عسكرية هامة غير الأبراج التي ذكرناها وهي: برج القلعة، برج علبني، برج السنطية، البرج البراني، وبرج الشيخ. وقد ضمت هذه الأبراج عام ١٥٦٦م اثنين وخمسين (٥٢) جندياً من طائفة المستحفظان وهم الانكشارية، ويسمون أحياناً باسم «الينكجرية». وهذه الطائفة العسكرية هي التي اشتركت في فتح مصر عام ١٥١٧ ومن مهامها الحربية أيضاً مهمة الدفاع عن القلاع. وهي القوة التي كانت تنتسب إلى الطريقة البكتاشية ــ وهي طريقة دينية ــ وإليها تنسب أسرة بكداش وبكداشي ومكداش ومكداشي.

ليست هذه الأبراج برغم كثرتها، كل الأبراج العسكرية والمدنية التي عرفتها بيروت منذ بداية العهد الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني مروراً بالعهود الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية، بما فيها العهد الصليبي.

أما فيما يختص بأبراج العائلات فإنها أكثر من أن تحصى في هذه الدراسة المتواضعة، لأن البيارتة درجوا على بناء أبراج فوق منازلهم، ولهذا كثرت الأبراج في بيروت سواء لأسباب عسكرية أم لأسباب مدنية. ولا يزال في بيروت الكثير من الأبراج المدنية في مناطق: رأس بيروت

ـ الحمراء ـ البسطة ـ المصيطبة ـ برج أبي حيدر ـ النويري ـ باطن البلد ـ الأشرفية ـ ولا يزال في طلعة شحادة منزل قديم جميل يعلوه برجان مدنيان من أجمل الأبراج البيروتية ومن أدقها هندسة وعمارة. ●

□ عملية بيع وشراء تظهر فيها إشارة إلى برج الكشاف في بيروت في ١٤ شوال ١٢٥٩هـ[1].

(١) سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة، سجل ١٢٥٩هـ. صحيفة ١٠٤ (مجموعة د. حسان حلاق الوثائقية).

مصادر البحث

وثائق غير منشورة:

ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ١٢٥٩هـ ووثائق متفرقة من السجلات.

المصادر والمراجـع:

(١) **ابن بطوطة**: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ١، تحقيق وتقديم د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

(٢) **ابن حوقل**: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩.

(٣) **أسد رستم**: آراء وأبحاث، منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٦٧.

(٤) **جون كارن**: رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسـع عشر، تعريب: رئيف خوري، منشورات دار المكشوف ـ بيروت ١٩٤٨.

(٥) **حسان حلاق**: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ـ سجلات المحكمة الشرعيـة في بيروت ـ الدار الجامعية ـ الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨.

(٦) **حسان حلاق**: التاريـخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ الدار الجامعية ـ بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(٧) **حسان حلاق**: بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية ـ بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(٨) **حنان قرقوطي**: التحصينات العسكرية والجهادية في بيروت من العصور الإسلامية الأولى حتى العهد العثماني (رسالة ماجستير من كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية)، بيروت ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

(٩) **داوود كنعان**: بيروت في التاريـخ، مطبعة عون، بيروت ١٩٦٣.

(١٠) **دومنيل دوبويسون (الكونت)**: استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة، المشرق، ج ٩، أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢.

(١١) **شفيق طبارة**: بيروت، سورها وأبوابها، أوراق لبنانية، م ١، ج ٦، حزيران (يونيه) ١٩٥٥.

(١٢) **شفيق طبارة**: ضواحي مدينة بيروت، أوراق لبنانية، م ٢، ج ٢، شباط (فبراير) ١٩٥٦.

(١٣) **شفيق طبارة**: معالم بيروت القديمة، أوراق لبنانية، م ٣، ج ١، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧.

(١٤) **صالـح بن يحيـى**: تاريـخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبـي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧.

(١٥) **طنوس الشدياق**: أخبار الأعيان في جبل لبنان، وضـع مقدمته وفهارسه د. فؤاد أفرام البستاني، ج ١، بيروت ١٩٧٠.

(١٦) **المقدسي**: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: M.J. de Goeje طبعة دي غويه، ليدن ١٩٠٦.

(١٧) **هنري غيز**: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، تعريب: مارون عبود، ج ١، ج٢، دار المكشوف ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠.

(١٨) Chehab Ed-dine, Said: Géographie Humaine de Beyrouth (Thèse — Sorbonne) 1953

(١٩) Debbas, Fouad; Beyrouth, Notre Mémoires, Beyrouth 1986, (Naufal Group).

الـدوريـات:

أوراق لبنانية (بيروت) م ١، ج ٦، ١٩٥٥.

أوراق لبنانية (بيروت) م ٢، ج ٢، ١٩٥٦.

أوراق لبنانية (بيروت) م ٣، ج ١، ١٩٥٧.

المشرق (بيروت) ج ٩، ١٩٢٢.

- **قد ضيعت الوقت والآن الوقت يضيعني.**

«شكسبير»

- **إن في حياة الناس مداً وجزراً، فمن استفاد من المد توصل إلى الثروة، وأما من أهمله فإنه يظل حياته بأسرها في شقاء. فعلينا أن نستفيد من التيار عندما يخدمنا وإلا ذهبت مساعينا سدى. وإن الفرصة لا تسنح مرتين، فاغتنم الحظ عند ما يبتسم لك ويدلك الواجب على الطريق. وإياك أن تحجم تجاه شبح المخاوف الذي يتمثل لك أو تتردد تلبيـة لداعي المسرات الذي يناديك. بل سر نحو غرضك بشجاعة وإقدام.**

«شاعر انكليزي»

سعر الزيت

● حدّث أبو عبد الله بن أبي عوف التاجر، قال:

ضاق صدري في وقت من الأوقات ضيقاً شديداً لا أعرف سببه، فتقدّمتُ إلى من حمل لي طعاماً كثيراً وفاكهة وعدة من جواريّ إلى بستان لي على نهر عيسى، وأمرت غلماني وأصحابي ان لا يجيئني أحد منهم بخبر يشغل قلبي ولو ذهب مالي كله، ولا يكاتبني. وعملت على أن أقيم في البستان بقية أسبوعي أتفرّج مع أولئك الجواري.

فلما قربت من البستان، استقبلني ساعٍ معه رسائل. فقلت له:

من أين وردت؟

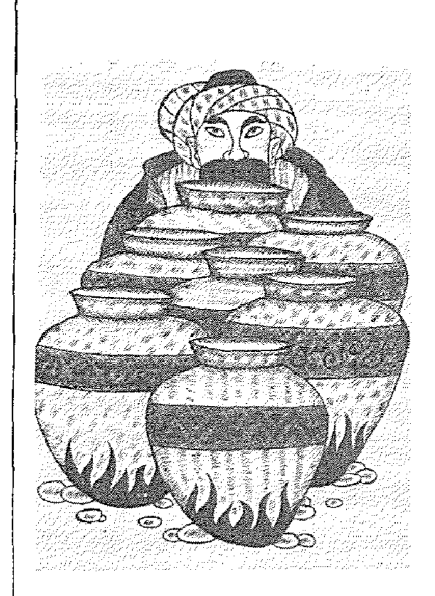
فقال: من الرقّة.

فأردت أن أقف على كتبه وأخبار الرقة وأسعارها. فقلت:

أنت قريب من بستان لي، فتعال معي حتى تستريح الليلة في البستان، وأغيّر حالك، وأطعمك، وتدخل بغداد غداً.

فقال: نعم.

ومشى معي راجعاً حتى دخلنا البستان، فأمرتُ من فيه أن يُدخله حمّاماً، ويغيّر ثيابه ببعض ثياب غلماني ويطعمه. فابتدأوا معه في ذلك. وتقدّمتُ إلى غلام لي فسرق كتبه، وجاءني بها ففتحتها، وقرأت جميع ما فيها، وعرفت من أسرار التجار الذين يعاملونيني شيئاً كثيراً، وتفرّجت بذلك. ووجدت جميع الكتب تنصح التجار بأن يتمسّكوا بما في أيديهم من الزيت، ولا يبيعوا منه شيئاً، فإنه قد غلا عندهم وعزّ.



فأنفَذْت إلى وكلائي في الحال فاستدعيتهم، وقلت لهم:

خذوا من فلان الصيرفي وفلان الصيرفيّ كل ما عندهم من الدنانير والدراهم الساعة، ولا ينقضي اليوم إلا وتبتاعون كل ما تقدرون عليه من الزيت، واكتبوا إليّ عند انقضاء النهار بالصورة.

فمضوا. فلما كان العشاء جاءني خبرهم بأنهم قد ابتاعوا زيتاً بثلاثة آلاف دينار. فكتبت إليهم بقبض ألوف دنانير أُخر، وبشراء كل ما يقدرون عليه من الزيت.

وأصبحنا، فدفعت إلى الساعي ثلاثة دنانير، وقلت له:

إن اقمتَ عندي دفعت إليك ثلاثة دنانير أخرى.

فقال: أَفعل.

وجاءتني رقعة أصحابي بأنهم ابتاعوا زيتاً بأربعة آلاف دينار، وأن سعره قد غلا لطلبهم إياه. فكتبت بأن يبتاعوا كل ما يقدرون عليه وإن كان السعر قد زاد.

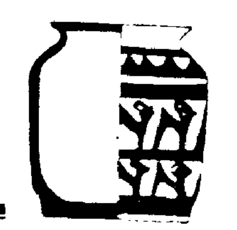
وشاغلتُ الرسول اليوم الثالث، ودفعتُ إليه في اليومين ستة دنانير، وأقام ثلاثة أيام وابتاع أصحابي بثلاثة آلاف دينار أخرى. وجاءوني عشياً فقالوا:

كان ما ابتعناه اليوم زائداً على ما قبله في السِّعر، في كل عشرة نصف درهم، ولم يبق في السوق شيء يفكِّر فيه.

فصرفت الرسول، وأقمت في بستاني أياماً، ثم عدت إلى داري، وقد قرأ التجار الكتب، وعرفوا خبر الزيت بالرقة، فجاءوني يهرعون ويبذلون في الزيت زيادة اثنين في العشرة. فلم أبع، فبذلوا زيادة ثلاثة في العشرة، فلم أبع. ومضى على ذلك نحو من شهر، فجاءوني يطلبون زيادة خمسة وستة، فلم أفعل. فجاءوا بعد أيام يعرضون شراء الزيت بعشرين الف دينار، فبعته.

ونظرت، فلم يكن لضيق صدري وانفرادي في البستان ذلك اليوم سبب إلا ما أحبّه الله تعالى، أن يوصل إليّ ربح عشرة آلاف دينار!

من كتاب «نشوار المحاضرة» للتنوخي



البلاطات الزخرفية

انتشرت عبر العصور طرقاً مختلفة لتزيين الجدران، بعضها كان معروفاً قبل الإسلام، وبعضها ظهر لأول مرة بعد الإسلام مثل المقرنصات والفسيفساء الخزفية.

ولقد ورث العثمانيون هذه الطرق ولكنهم انتقوا منها طريقة أحبوها، وفضلوها على غيرها، واكثروا من استعمالها في عمائرهم هي البلاطات الخزفية أو التربيعات القاشانية. وتفضيلهم لهذه الطريقة في زخرفة الجدران ربما كان راجعاً إلى أنها أقل تعقيداً في الاستعمال من الفسيفساء الخزفية التي كان يفضلها سلاجقة الروم قبلهم، فالبلاطات القاشانية أكبر حجماً من الفصوص الخزفية، والنقش فيها يكون أوضح، وتركيبها ليس معقداً ولا يحتاج إلى جهد كبير. وهكذا اشتد الاقبال على استعمال هذه الطريقة، ولم تتفوق على تركيا العثمانية دولة أخرى من الدول الإسلامية، وشاعت في أيامهم بعد أن كان استعمالها محدوداً قبلهم، وليس ببعيد أن تكون العمائر التي زينت بهذه الطريقة في دول إسلامية أخرى قد أتى عليها القدم والاهمال فضاعت معالمها في حين أن العمائر العثمانية المزينة بالقاشاني قد وصل إلينا منها الكثير.

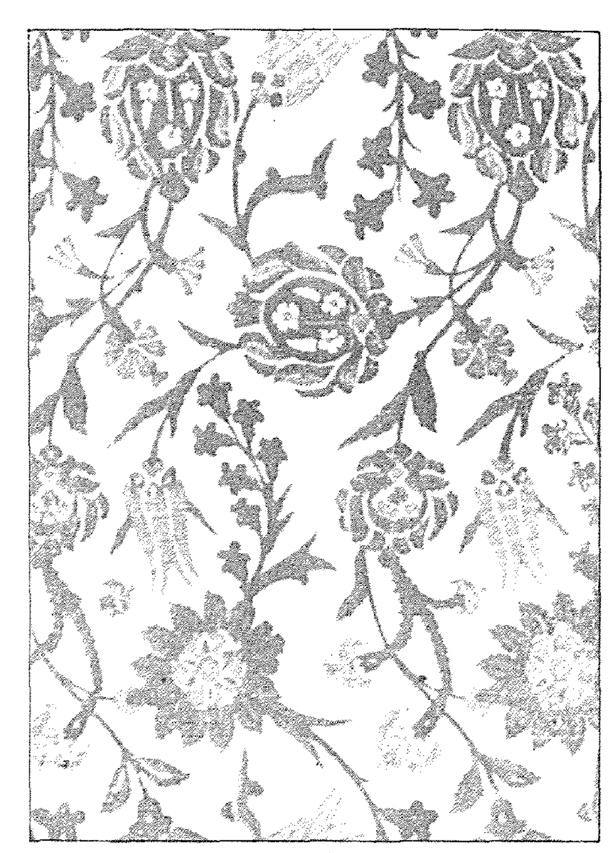
والتأمل في هذه العمائر العثمانية يكشف لنا عن أن جدرانها تزدان بالبلاطات الخزفية ذات الأشكال الهندسية المختلفة من نجوم ومسدسات ومثمنات، وأن هذه البلاطات بعضها عاطل من الزخرفة وبعضها يزدان بالزخارف النباتية والزخارف الكتابية، وبعضها من لون واحد وبعضها يجتمع فيه أكثر من لون.

وأقدم مركز لصنع هذه البلاطات في آسيا الصغرى هو مدينة أزنيق Isnik التي هي في الحقيقة تقوم على انقاض مدينة قديمة إسمها نيقية، كانت تشتهر في العصر البيزنطي بالمصنوعات الخزفية عامة وذلك بسبب توفر الطينة الجيدة بها التي تشبه إلى حد كبير طينة البورسلين (أي الكاولين الصيني).

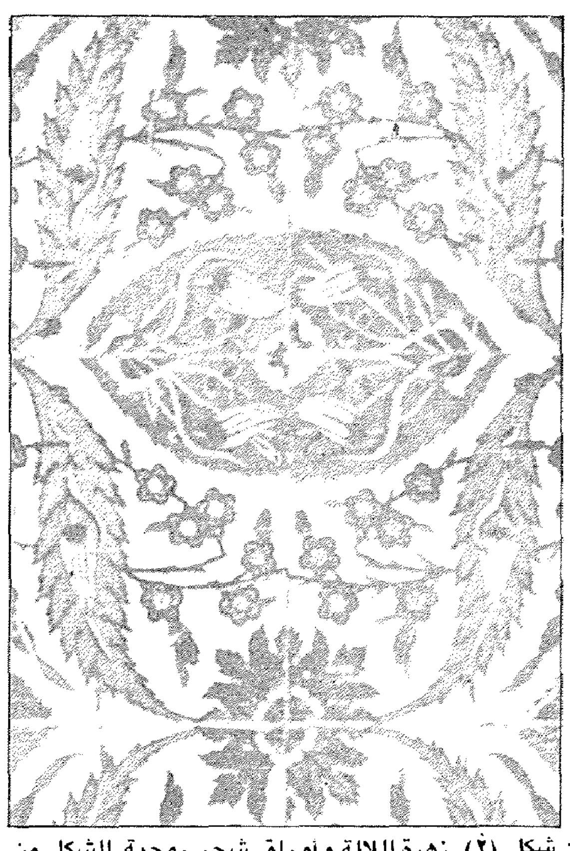
وفي أوائل العصر العثماني، أي في القرن الرابع عشر الميلادي، كانت مصانع هذه المدينة تنتج تربيعات أو بلاطات قاشانية ذات لون واحد دون أن يكون بها زخرفة، وفي المسجد الذي أنشأه مراد الأول بهذه المدينة أمثلة جميلة من هذه البلاطات، يستلفت النظر فيها إطار ذهبي يحف بكل بلاطة من جوانبها الأربعة وترجع في تاريخها إلى سنة ١٣٧٨ م.

وفي القرن الخامس عشر بدأ الخزاف في أزنيق يزين البلاطات بالعناصر النباتية وبالكتابات الجميلة فضلاً عن تلوينها بألوان مختلفة، أي أن البلاطات القاشانية لم تعد عاطلة من الزخرفة كما كانت من قبل بل بدأت تتجلى فيها الزخرفة النباتية الجميلة فمن مملكة الأزهار اختار الفنان العثماني زهرة القرنفل Carnation وزهرة اللاله Tulip(شكل ١ ، ٢) ومن مملكة الأشجار اختار شجرة السرو (شكل ٣) والنخيل، ومن صور الفاكهة اختار الرمان والعنب، ومن أوراق الشجر اختار ما كان منها رمحي الشكل. على أن أروع الزخارف النباتية ما نشاهده في البلاطات الخزفية الموجودة في مسجد المرادية بمدينة بروسه الذي أنشأه السلطان مراد الثاني في سنة ١٤٢٤ م إذ نرى تلك الزخرفة النباتية التي اختص بها الفن العثماني ونعنى بها زخرفة «الرومى» Roumi (شكل ٤) وزخرفة الهاتاي Hatayi.

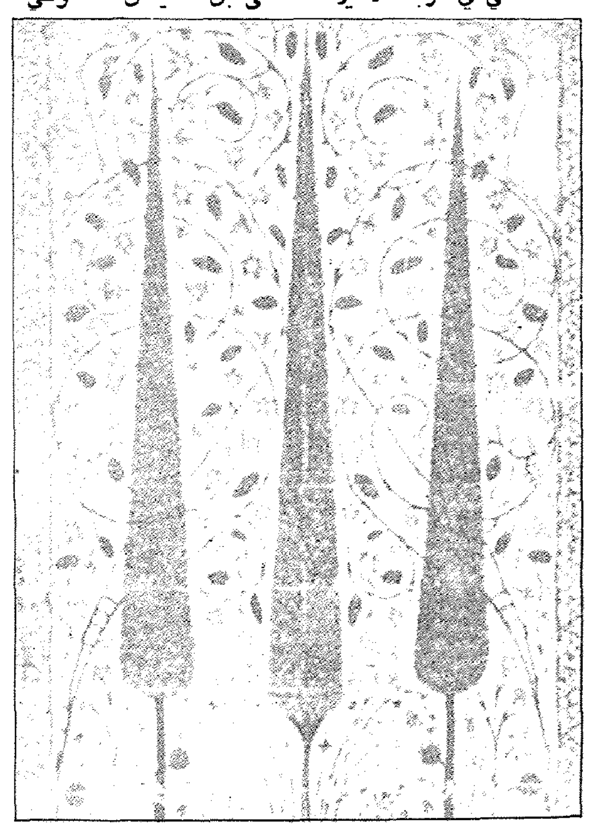
■ الصور من كتاب الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق.



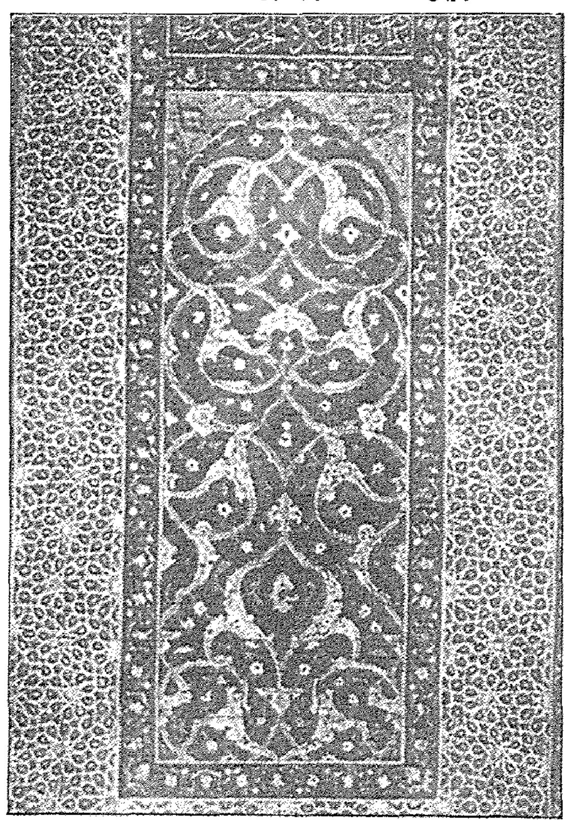
شكل (١) زهرة اللالة وزهرة القرنفل كما نراهما في الخزف العثماني في تربة الأمير مصطفى بن سليمان القانوني.



شكل (٢) زهرة اللالة وأوراق شجر رمحية الشكل من صناعة ازنيق متحف طوبقابو.



شكل (٣) أشجار السرو كما تبدو على القاشاني العثماني في متحف طوبقابو.



شكل (٤) زخرفة «الرومي» كما تبدو على القاشاني العثماني في تربة السلطان سليم الأول بإسطنبول

الحِرَف والصّناعة الشعبيّة في صَيدا

منذ الفتح العثماني إلى الحملة المصرية على بلاد الشام[*]

١٥١٦ - ١٨٣٢

(القسم الأول)

د. حسين سلمان سليمان

انحصرت حدود مدينة صيدا، حتى منتصف القرن التاسع عشر، شمالاً بنهر الأولي، وشرقاً بسفوح المرتفعات الجبلية المشرفة على المدينة، وغرباً بالبحر، وجنوباً نهر البرغوث، الذي تتجمع مياهه من الأمطار، وما يصب فيه شتاء من أودية الجبال المجاورة[١]. وكانت المدينة قد تعرضت للخراب الكامل، بسبب الحروب الصليبية، فتأخرت كثيراً، وانحط شأنها، ولم يكن هذا الانحطاط والخراب من نصيب صيدا فقط، وإنما أصاب كل المدن الساحلية الشامية، ذات المرافىء الهامة في هذا العهد. ذلك أن المماليك كانوا يخشون من عودة الإفرنج الذين كانوا قد أجلوا إلى قبرص ورودس، حيث جعلوا من هاتين الجزيرتين موقعين متقدمين، للإغارة على الساحل الشامي[٢]، هذا الخوف دفع المماليك إلى طمر المرافىء وتخريبها، لمنع سفن الأعداء من الاقتراب منها ودخولها[٣].

□ صورة مائية لصيدا للفنان دافيد روبرتس (١٧٩٦ — ١٨٦٤).

(*) محاضرة ألقيت بتاريخ ١٩٨٨/٤/٨ في المركز الثقافي للبحوث والتوثيق في صيدا

السكان



لكن سرعان ما أعاد المماليك بناء صيدا لكنهم اختاروا لها موقعاً داخلياً، ثم جددوا تحصيناتها وأسوارها، وأضافوا إليها فيما بعد، كما عملوا على تأهيل المدينة بعناصر بشرية موالية لهم، فاستقدموا حاميات من السنّة يأمنون جانبهم، ينتمي بعضها إلى عشائر التركمان؛ ليكونوا لها كمرابطين أو مراكز مسلحة متقدمة، تحمي المدينة من غزوات الفرنج بحراً[٤]، وغارات الشيعة والموارنة والدروز براً، الذين كانوا بنظر السلطة الشرعية المملوكية بمثابة هراطقة. ولقد سبب وجود هؤلاء الخصوم، إلى جانب وجود المدينة نفسها في منطقة جغرافية منبسطة، كان سبباً في تحديد مظهر التجمع البشري والمركز السياسي للمدينة. فقد كان سكان صيدا يخشون بصورة دائمة، تعرضهم لهجوم من المناطق المجاورة لهم، مما جعل المدينة تحرص للغاية على أن تنغلق على نفسها، خلف أسوارها، وتتجنب تشكيل ضواح، رغم الازدياد البارز في عدد سكانها خلال العهد العثماني، ومن الناحية السياسية، فإن المدينة كانت شديدة الولاء للباب العالي العثماني، الذي كان يدافع عنها في عالم معادٍ لها، فخلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني، لم تعرف صيدا التمرد ضد حكامها، وحتى في العام ١٧٣٠، حين تمردت كل المدن الشامية، بما في ذلك أبسطها[٥]، فقد ظلت صيدا موالية للسلطان العثماني[٦].

وظلت صيدا رغم استعادتها من قبل المماليك، في العام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، ورغم إعادتهم تجديد بناء حصونها وأسوارها، فقد ظلت المدينة، وحتى نهاية القرن السادس عشر، مدينة ضعيفة نصف متهدمة قليلة الأهمية، دون أي دور اقتصادي بارز، كغيرها من الموانىء المشرقية[٧]. وقد أشار إلى حالتها التعيسة هذه الرحالة الذين زاروا المدينة في خلال القرون الثلاثة. ففي العام ٧٢١هـ / ١٣٢١م، وصف أبو الفدا المدينة بأنها «صغيرة حصينة»[٨]، وبعد ذلك بسنوات وصفها (لودولف الدهيمي) بأنها «مدينة ساحلية... مهجورة»[٩]. وحين زار (جون بولونر) الأراضي المقدسة في عام ١٤٢١ — ١٤٢٢، ذكر بأن خرائب المدينة التي شاهدها، تشهد بما كان لها من عظمة، وبأنه «خارج أطلالها بنيت مدينة أخرى صغيرة حقاً ولكنها حصينة وينقصها الرجال للدفاع عنها»[١٠]. ومع ذلك، فقد ظلت المدينة تستقبل مهاجرين جداً سواء من إقليم الخروب المجاورة أو من الجنوب الإسلامي، علماً أن العديد من العائلات الصيداوية، تعود بأصولها إلى أصول مغربية[١١].

وفي خلال الفتح العثماني، كانت صيدا كغيرها من مدن الساحل الشامي، باستثناء طرابلس، قليلة السكان والتجمع السكاني الموجود فيها، لم يكن بإمكانه من حيث تعداده، أن يجعلها تتخذ الوضع الحقيقي لمدينة من حيث الحجم، ومع ذلك، فقد حاولت السلطات العثمانية إعادة تعميرها بالسكان، بهدف تحويلها إلى مركز دعم[١٢].

ولقد عرفت صيدا بعض التجديد ابتداء من العام ١٥٦٠ وعلى الأخص مع بناء إبراهيم باشا الخان الكبير (خان الفرنج)، والذي ينسبه بعض المؤرخين إلى فخر الدين المعني الثاني[١٣]، واتخاذ الأمير المذكور المدينة في العام ١٥٩٤ قاعدة لإمارته ومقراً له، ثم سعيه لتجديد رسومها، وترميم ما تهدم من أبنيتها وقلاعها، وتحسين مرفئها وتوسيعه، وترويج تجارتها، والاهتمام بتنمية مواردها، عن طريق تنشيط الحركة التجارية، وحماية التجار من القراصنة الذين كانت مرافىء الساحل الشامي هدفاً لتعدياتهم، وتشجيع الصناعة وعلى الأخص صناعة الحرير والصباغة والصابون، وربط صيدا تجارياً بتسكانا وغيرها، وتزويد المدينة بالفنادق والخانات والمنشآت المدنية الحضرية والعسكرية[١٤]. فاجتذبت هذه الأنشآت والتسهيلات التجار الأجانب. وبخاصة التجار الفرنسيين، فبدأت المدينة تشهد بعض النشاط التجاري ابتداء من العام ١٦١٢، فأخذ التجار الأجانب يتمركزون في المدينة، ويوسعون تجارتهم معها، وخصوصاً بعد أن فقدت طرابلس مركزها التجاري، فصار من الضروري إيجاد ميناء على الشاطىء الجنوبي للمشرق، ليكون مستودعاً



□ كان «السيف والترس» اللعبة الشعبية الأولى في صيدا وكان لها أبطالها ومتفرجوها. (من كتاب تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠ ــ ١٩١٤ للدكتور طلال ماجد المجذوب).

لتجار الغرب فكانت صيدا، فانتقل التجار الأجانب من طرابلس إلى صيدا وحلب، وكانت صيدا وحلب تتنافسان على الزعامة الاقتصادية والتجارية في عهد فخر الدين[١٥].

ولعب موقع المدينة دوراً بارزاً في ازدهارها في خلال هذه الفترة، فقد كانت محاذية لمنطقتي إنتاج يكمل بعضهما بعضاً، جبل الدروز[١٦] بحريره، وجبل عامل[١٧] بقطنه. وبالإضافة إلى ذلك، كان لها اتصال سهل مع دمشق والداخل الشامي، في مرحلة فقدت حركة الترانزيت العالمية أهميتها لصالح المنتجات المحلية[١٨]، وطريق صيدا ــ مرجعيون ــ دمشق طريق طبيعي وتاريخي، يدلنا على ذلك القلاع المبنية على طوله في مواقع استراتيجية، مثل: قلعة الشقيف وقلعة بانياس[١٩].

وفي حين كان عدد سكان صيدا ألفين وخمسمائة[٢٠] نسمة في نهاية القرن السادس عشر، فقد بلغ عددهم، ما بين ستة[٢١] آلاف إلى تسة آلاف في القرن السابع[٢٢] عشر، في حين عاد عدد السكان، وانخفض إلى خمسة آلاف، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وفقاً لتقدير الرحالة الفرنسي فولني[٢٣]، وهذا النقص في عدد السكان، إنما كان نتيجة الاضطراب الأمني الذي أصاب بلاد الشام الجنوبية، حيث انقسمت إلى حزبين: الأول يترأسه والي دمشق، ويضم ولاة حلب، وطرابلس، وصيدا، والقدس، وبغداد، والموصل، والثاني، ويرأسه ظاهر العمر، ويسيطر على القسم الجنوبي من فلسطين، حول عكا، وصفد، وطبرية وغزة[٢٤]، ويناصره مشايخ جبل عامل بزعامة الشيخ ناصيف النصار وعلي بك الكبير بمماليكه في مصر[٢٥]، وأنزل الحزب الأخير بالحزب الأول هزائم مذلة في أكثر من موقعة حربية[٢٦]، وتضررت صيدا للغاية من هذا التمرد، وتعرضت للنهب والسرقة أكثر من مرة، نتيجة احتلال المتمردين لها، فاضطر ثلاثة أرباع سكانها مغادرتها إلى مناطق أكثر أمناً واستقراراً[٢٧]، نصفهم انتقل إلى بيروت[٢٨]. وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية المعاصرة بقولها:

«لم ينته شهر أيار (مايو ١٧٧٢) حتى أصبحت المدينة (أي صيدا) خالية من جميع سكانها، بما فيهم المفتي والقاضي ونقيب الأشراف، وأصدر الدنكزلي[٢٩] (حاكم صيدا) في الثاني من حزيران (يونية) أمراً بأن يغادر صيدا

جميـع الرجال الذين لا فائدة حربية منهم. ومن يبق منهم في المدينة إلى ما بعد الساعة السادسة فسوف يتعرض للشنق»[٣٠].

ومما ينبغي الإشارة إليه، أن تصفية السلطات العثمانية للتمرد ظاهر العمر، واستعادتها لمدينة صيدا في العام ١٧٧٥[٣١]، لم تشجعا أهالي صيدا على العودة إلى مدينتهم، فقد خضعت المدينة لحكم متسلم[٣٢] تابع لوالي صيدا أحمد باشا الجزار (١٧٧٥ ــ ١٨٠٤)، الذي نقل مقر الولاية من صيدا إلى عكا[٣٣]، وما تلى ذلك من تدهور مكانة صيدا الاقتصادية، واحتلال مدينة بيروت لمكانتها[٣٤]. كما عانت صيدا أيضاً سياسة الجزار ومظالمه، والتمرد الذي قام به مرتزقة هذا الباشا عليه، في العام ١٧٨٩[٣٥]. وبوفاة الأخير في العام ١٨٠٤، وتولي خلفه سليمان باشا العادل مقاليد ولاية صيدا في العام ١٨٠٥، واتباعه سياسة تتسم بالعدل والتسامح[٣٦]، تبدل وضع مدينة صيدا، فعاد عدد سكانها يتضاعف، فبلغ عشرة آلاف وخمسمئة نسمة في العام ١٨١١ وفقاً لتقدير القنصل الفرنسي في صيدا[٣٧].

ومما ينبغي الإشارة إليه أيضاً أن سكان صيدا، في بداية القرن السادس عشر، كانوا متشابهين إلى حد ما من حيث المذهب الديني السائد فيما بينهم، رغم وجود حي لليهود، وآخر للموارنة، وعدد قليل من الروم الكاثوليك[٣٨]. فقد كان أغلب السكان ينتمون إلى السنّة على مذهب الإمام الشافعي، في حين اتبع بعض أعيانها المذهب الحنفي، تقرباً من السلطات العثمانية الحاكمة، التي جعلت المذهب الحنفي مذهباً رسمياً طبقته المحاكم[٣٩]. كما ارتبطت بعض الأسر الصيداوية مثل: الصلح، والبزري، وحمود، بزيجات مع أسر دمشقية، ذلك أن الكثير من أفراد هذه الأسر، كان يقطن ما بين المدينتين، ووجود الأسرة في الحاضرة الرئيسية، أي دمشق، كان يدعم الوضع المحلي للأعيان. وكانت هذه العلاقات موجودة أيضاً، لدى الأسر النصرانية في صيدا، والتي تشكلت ببطء منذ قدوم عناصر من دمشق. فهذه العناصر كانت من الروم الكاثوليك، وكانت أعدادهم وفيرة في دمشق، وكانوا قد انتقلوا إلى صيدا، نتيجة الاضطهاد الذي كانوا يتعرضون له، من قبل بطريرك الروم الأرثوذكس المعترف به، من قبل السلطات العثمانية[٤٠]. كما جذب الازدهار الاقتصادي الذي عرفته المدينة عناصر أخرى من أصول متعددة، ممن هجروا مناطقهم الداخلية، هرباً من انعدام الأمن، وانتشار البؤس والتعاسة فيها. كما غادر أيضاً عدد من أبناء المقاطعات الجبلية اللبنانية مواطنهم الأصلية، سواء عن طيبة خاطر، كالموارنة، أو مطرودين، نتيجة قدوم عناصر بشرية أخرى، كشيعة جبل عامل، إلى أن أصبحت مدينة صيدا في أواخر القرن الثامن عشر، مدينة مختلطة السكان. وإذا حاولنا تأريخ قدوم هذه الهجرات، صَعُبَ علينا معرفة خصائصها؛ ذلك أن المنطقة الساحلية الشامية كانت في بداية القرن التاسع عشر، تشهد كثافة سكانية لم تعرفها القرون الثلاثة السابقة[٤١].

وكان المسيحيون واليهود من أبناء المدينة، شأنهم في ذلك شأن أهل الكتاب في الدولة الإسلامية) يعتبرون ذميين، يدفعون الجزية ولا يولَّوْن أعمالاً ذات مسؤولية، وحتى ما اشترعه القرآن الكريم والسنّة النبوية من حق حماية أهل الذمة، لم يكن ينقذهم ذلك من بعض المظالم أحياناً. فقد كان الناس يتعرضون لكثير من مصادرة الأملاك، وفرض الغرامات، وسوء المعاملة من قبل الولاة العثمانيين، لأسباب متعددة، وكان المسيحيون واليهود معرضين لذلك، على أن مثل هذه المغارم كانت تصيب المسلمين أيضاً، وما ذلك إلا بسبب سياسة الولاة العثمانيين الذين كانوا يفرضون هذه المظالم على جميع السكان؛ لتعويض المبالغ الضخمة والهدايا الثمينة التي تكبدوها في الآستانة، مقابل الحصول على مناصبهم تلك، وكذلك ضرورة الاستمرار في إرسال الهدايا والرشوات لذوي الأمر والنهاية في المدينة المذكورة من أجل استمرارهم في مناصبهم تلك، أطول مدة ممكنة، وكذلك لإبعاد المؤامرات التي كان ينصبها ضدهم موظفو البلاط العثماني أو من أجل الترقي إلى مناصب أعلى[٤٢].

ورغم الازدياد البارز في عدد سكان صيدا، فقد استمروا منغلقين حول أسوار مدينتهم، وتجنبوا تشكيل ضواحٍ، وكان هذا السور مؤلفاً



□ كان «الحكواتي» سمير ليالي الصيداويين حتى نهاية الربع الأول من هذا القرن (من كتاب تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠ ــ ١٩١٤ للدكتور طلال ماجد المجذوب).

من قسمين ينطلقان من القلعة البرية (قلعة المعز)، يتجه الأول شمالاً، وينتهي عند باب بيروت قرب قلعة البحر، حيث يقوم بدور حماية المدينة من جهة الشرق، ويحاذيه حالياً شارع البوابة الفوقا، حيث أقام الأهالي جدارنا لمنازلهم بما تبقى من هذا القسم. أما القسم الثاني من السور، فكان يتجه غرباً، وينتهي عند ساحل البحر، حيث الحوض الجنوبي، ويقوم هذا القسم بحماية المدينة من جهة الجنوب، ويذكر بعض المؤرخين أنه كان يحيط بالمدينة سور غربي من ناحية البحر[٤٣]. لكن الرحالة فولني الذي وصف المدينة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، لم ير هذا السور، وذكر أن «ما من سور يصون المدينة من جهة البحر»[٤٤].

أما من حيث التقسيم الطوبوغرافي للمدينة، فقد كانت مقسمة قسمين واضحين: قسم شمالي يمتد من المرفأ ولغاية السراي، حيث قامت منطقة تتميز بخصائص تجمع النشاط الحرفي الصناعي إلى جانب التجاري، تتواجد فيها المستودعات والخانات والمصابن والأسواق المهمة، وقسم جنوبي، حيث تنغلق المدينة على نفسها بأحيائها، التي يقطنها الريفيون الذين يعملون في بساتين الجوار الفائقة الجمال[٤٥].

وكل قسم من القسمين المذكورين، انقسم بدوره إلى عدد كبير من الأحياء المنفصلة (حارة، محلة)، وكل حي مكتفٍ بنفسه وله مبانيه العامة والخاصة به (المسجد، الحمام، السوق) وبوابته الخاصة، وهذا ما يؤكد الكيان المستقل للحي. كما شكل كل حي وحدة إدارية يرأسها شيخ الحارة، وتسكنه أسر كانت توجد فيما بينها بعض الروابط الطبيعية، كالأصل أو المهنة أو الدين (الفواخير، المصبنة، الموارنة، اليهود)، ومن هنا كانت تلك الأسر تكون مجموعة متجانسة. ولما كان عدد الحارات أقل من عدد الطوائف الحرفية المنفصلة، فيبدو أن نظام الحارات كان يستند إلى نظام طوائف الحرف وإن لم يتعارض معه.

وانحصرت طوائف الحرف الصناعية والتجارية، في باطن المدينة، حيث انتشرت الأسواق الرئيسية في المنطقة الواقعة حول خان الفرنج، فامتدت تلك الأسواق شمالاً حتى قاربت المرفأ الشمالي، باب صيدا على العالم الخارجي، وشرقاً حتى البوابة التحتا، باب صيدا على بيروت. وهذا التمركز إنما كان نتيجة حتمية،

لوجود خان الفرنج، الذي ضم مخازن لتخزين البضائع، وحوانيت لبيعها بالجملة والمفرق، ومقراً لإقامة التجار الفرنسيين، وما أقامه الأمير فخر الدين المعني، من منشآت حضرية له في تلك المنطقة، كإقامة قصر له، وسراي، وحمام يدعى حمام المير، كل ذلك ساعد على تنشيط التجارة، فانتشرت خارج الخان على شكل أسواق متنوعة، متخصصة في إنتاج سلع محددة وبيعها[٤٦].

وتركز العمل الصناعي في السوق، وهو ممر في الوسط تحف به على جانبيه الدكاكين، حيث يجري صنع السلع اعتماداً على الأيدي العاملة، ونادراً ما تلجأ إلى قوى محركة كالهواء والماء. كما لم يكن المصانع في ذلك الوقت، يعمل على تكديس المادة الخام لديه بكمية كبيرة، ولم يكن الإنتاج ضخماً يستهلك فيه مادة خادم كبرى، إنما في أغلب الأحيان، كان يقوم بصنع كميات محددة بناء لطلب بعض التجار والعملاء. ويقدم التاجر أو العميل المادة الخام التي يقوم هو بصنعها حسب الطلب، ومع ذلك فقد كان هناك صناع يقومون في الوقت نفسه بدور الصانع والتاجر معاً. ويستدل من ذلك أن الصناعة لم تكن تتطلب رأسمالاً كبيراً، وإنما إتقان في العمل وسرعة في التسلم، ولم تكن الأجور في تلك الآونة مرتفعة، وإنما ذات مستوى منخفض، نظراً لمستوى الحياة العام والأسعار، كما كان الصانع يستخدم لديه متمرنين بدون أجر[٤٧].

طوائف الحرف

اشتهر الساحل الشامي بصنائعه القديمة، وقد طار صيت صيدا بزجاجها الفاخر، وصور بأرجوانها النفيس، وكان من أهم أعمال سكان بلاد الشام النسيج والتجارة، والتعدين واستخزان الحديد والفحم الحجري. ومع الاحتلال العثماني لهذه البلاد، حافظ الغزاة الجدد على نظم البلاد الاقتصادية، وعاداتها الموروثة السابقة، فاستمرت كما كانت عليه سابقاً في عهد المماليك، وإن بدت في خلال العهد العثماني أكثر انحطاطاً، بإنتاجها ونشاطها عما كانت عليه سابقاً، مما جعل بعض المؤرخين يحمّلون الاحتلال العثماني، مسؤولية تدهور الصناعة في بلاد الشام، وقد دفعهم إلى هذا الاعتقاد.

١ ــ نقل السلطان سليم الأول من القاهرة، وحلب، ودمشق، إلى الآستانة، عدداً كبيراً من أمهر الصنّاع، فأدّى ذلك إلى إقفار الصناعات في مصر وبلاد الشام، لأن الصناعة كانت تنتقل آنذاك في نطاق الأسرة الواحدة، فيتوارثها الابن عن الأب حتى تغدو احتكاراً لهم.

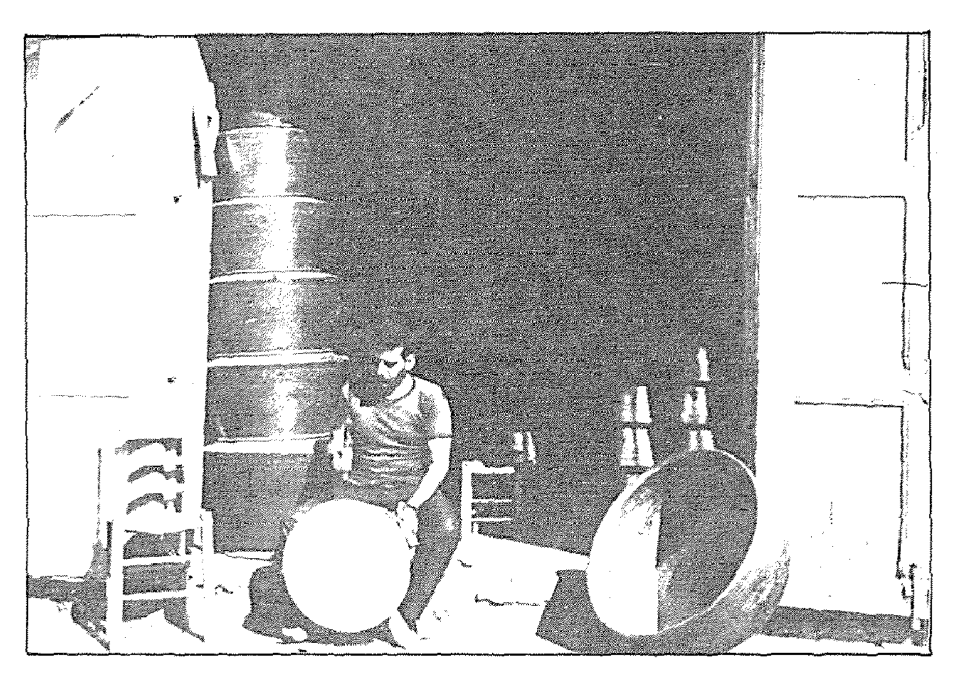
٢ ــ البعد النسبي للآستانة عن بلاد الشام، لأن الصناعات المتقنة، لا تجد رواجاً إلا في العاصمة، حيث مظاهر الترف أكثر من الأقاليم، كما تلقى الصناعات تشجيعاً مادياً وازدهاراً فنياً أكثر، وأقوى مما هو عليه في المدن البعيدة عنها[٤٨].

والواقع أنه لا يمكن تحميل الدولة العثمانية المسؤولية الأولى عن تخلف الصناعة في بلاد الشام، فهناك عوامل أخرى، تعود إلى ما قبل الاحتلال العثماني، أي إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أهمها:

١ ــ الوضع الصناعي والتجاري العالميان، نتيجة النهوض الذي أصاب الصناعة الأوروبية بالنسبة لما كانت عليه سابقاً، وتوقفها عن استيراد سلعنا المصنعة واكتفائها باستيراد المواد الخام، وإعادتها بضائع مصنعة تنافس إنتاجنا المحلي، الذي لم يكن يتمتع بالحماية الجمركية، بل بالعكس تمتع الأوروبيون بأكثر تعريفة جمركية انخفاضاً.

٢ ــ مركز الشرق العربي الاقتصادي في هذه الفترة من الزمن، فقد كان مضعضعاً نتيجة الحروب والكوارث الذي أصابته في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وانتقال تجارة الهند من المرور في مصر وبلاد الشام إلى سلوك طريق موأل رأس الرجاء الصالح، وما رافقها من ظروف قاسية عانت من جرائها بلاد الشام، فقد اجتيحت أراضيها، وفقدت أمهر صناعها، وانتابتها الأوبئة[٤٩].

٣ ــ القيود التزمتية التي كان يعيش في إطارها كل من يباشر مهنة، فقد كان عضواً نافعاً في طائفة صناعية، أي أنه يعيش ضمن جماعة لها تقاليدها، وعاداتها، ورموزها، ويطلق عليهم «الأصناف» أو «الطوائف». وهذا العامل الأخير



□ صناعة النحاس.



□ صدر نحاسي مع مصب للقهوة العربية.

لعب دوراً بارزاً في إضعاف الصناعة وركودها وعدم توسعها، وهذه تعود بجذورها إلى أبعد من العهد العثماني، فقد كانت كل الطوائف الحرفية تتبع نظاماً واحداً[٥٠].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن «الأصناف»، لا يعود تاريخ تواجدها إلى العهد العثماني فقط، بل إن تأسيسها يعود في الواقع، إلى القرن التاسع الميلادي، وكان لها علاقات وتأثرات بفرق القرامطة والإسماعيلية، لكنها في العهد العثماني، تأثرت بالفتوات ممثلة بجماعات «الآخي» في الأناضول، ولكن هذا التأثير يبدو ضعيفاً في بلاد الشام، وبخاصة في خلال المرحلة الأولى من الحكم العثماني فيها. وهذه الأصناف تختلف في تنظيماتها وتفصيلاتها من مدينة إلى أخرى، لكنها جميعاً تتبع نظاماً أساسياً واحداً[٥١].

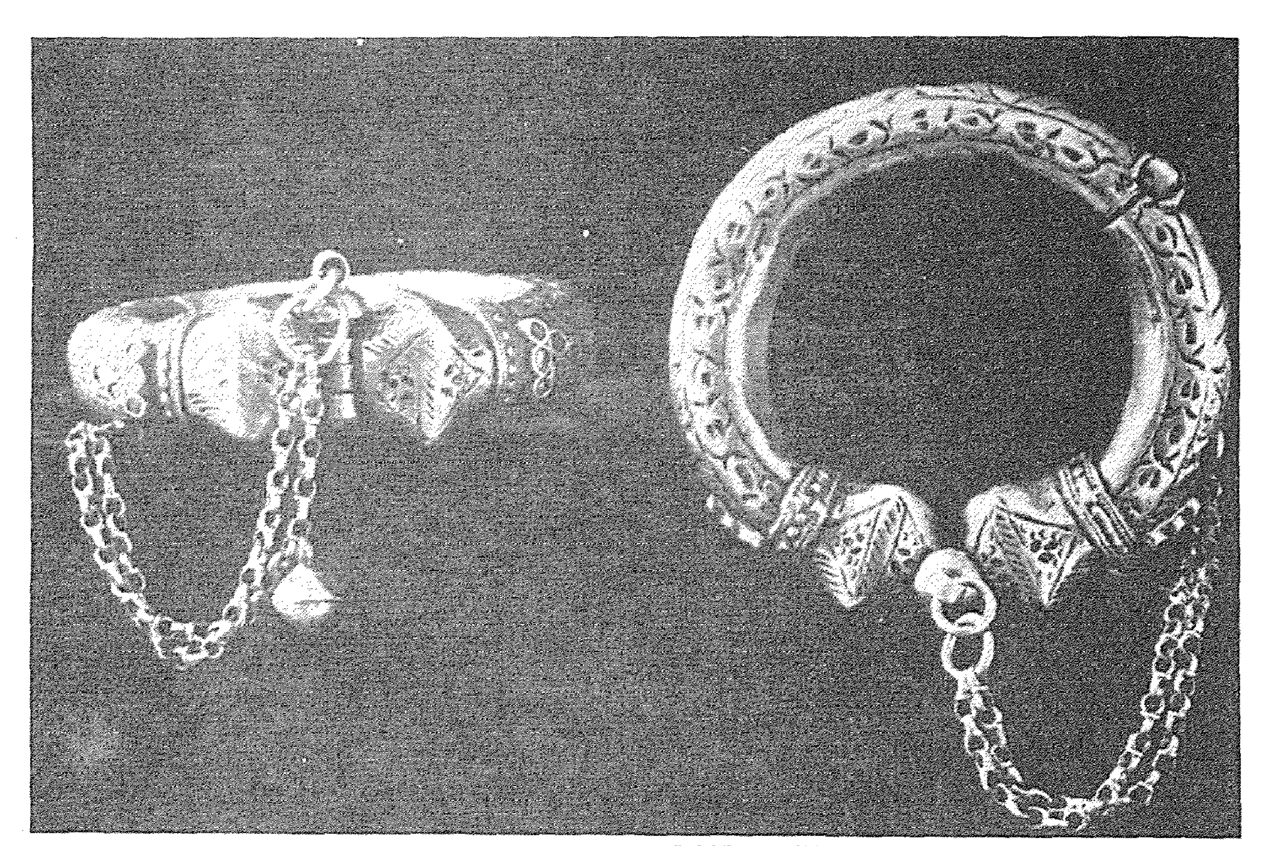
فقد كان يرأس كل الحرف التي كانت موجودة في المدينة، رئيس أكبر يدعى شيخ المشايخ، ويليه رؤوساء ثانويون يتدرجون في سلم ثابت للوظائف، وهم: مشايخ الحرف، والمعلمون أو الصناع، والمبتدئون أو الخدام، ويجري ترقية هؤلاء من الرتبة الدنيا إلى الأعلى باحتفال علني

يحضره أفراد الطائفة الحرفية، يدعى «الشد» أو «التلميح». وكان ينفرد بمنصب شيخ المشايخ، أسرة عريقة تكون عادة من الأشراف، ويكون هذا المنصب من حق أكبر أفراد هذه الأسرة سناً، على شرط أن تتوفر في من يشغله صفات معينة، تتمثل في: الوقار والتفقه في أمور الدين، وعلى جانب عظيم من التقوى، على أن يتولى هذا المنصب مدى الحياة، بموجب فرمان سلطاني. ويتمتع شيخ المشايخ بسلطة مطلقة على جميع الحرفيين المتواجدين في المدينة، يأمر وينهي، ويفصل كل المشاكل والقضايا التي ترفع إليه، ويعاقب بالسجن والضرب بالعصي والقيد على من يستحق هكذا عقوبات[٥٢].

ويلي شيخ المشايخ في المرتبة النقباء. وهم عادة أكثر من واحد، ويعينون من قبله لينوبوا عنه في حضور الاجتماعات العامة، والاحتفالات التي كانت تعقدها طوائف الحرف للمذاكرة في القضايا المتعلقة بشؤون الحرفة، أو لترقية (الشد) صانع أو معلم إلى رتبة أعلى من الرتبة التي يشغلها. ولم يكن منصب النقيب وراثياً في عائلة معينة، وإنما انحصر حق تعيينه وعزله بشيخ المشايخ[٥٣].

وكان لكل حرفة شيخ ينتخبه شيوخ الحرفة، (المعلمون والأساتذة أو الاسطاوات أو الاختيارية)، ولا يتم الانتخاب بأكثرية الأصوات إنما بالمذاكرة والاستحسان واتفاق الآراء. وفي حال عدم اتفاق آراء المعلمين على مرشح واحد، وحصول تباين في الرأي، يرفع الأمر إلى شيخ المشايخ الذي يصدر قراره بتعيين أحد المرشحين. ولا يباشر شيخ الحرفة الجديد مهام منصبه إلا بعد التصديق على التعيين، من قبل شيخ المشايخ، والقاضي الشرعي. ويتم ذلك بأن يذهب أهل الحرفة، من معلمين وصناع، بشيخهم الجديد إلى شيخ المشايخ، ويذكرون له «أننا عينا فلاناً شيخاً علينا»، فيقوم شيخ المشايخ بربط الشيخ المنتخب بالمخرم، ثم يتلو عليه بعض آيات القرآن الكريم، ويقدم له النصائح اللازمة، لإدارة حرفته بالعدل والاستقامة، والسهر على صالحها، ثم يسلمه العهد. وبانتهاء هذه المراسم يقال عن شيخ الحرفة الجديد بأنه «دخل على بساط الشيخ» أي أنه فاز بالتصديق على مشيخته من شيخ المشايخ، ذلك أنه بعد التصديق يحد أمام الشيخ المعين بساط أخضر تذكاراً ببساط النبي[٥٤]. وبعد هذه المراسم، هناك إجراء رسمي آخر يتوجب على شيخ الحرفة، أن يقوم به، لكي يكون لتعيينه الصفة الرسمية، ويقضي هذا الإجراء، بأن يتوجه الشيخ المنتخب مع رد اختيارية الحرفة إلى المحكمة الشرعية، لكي يقر القاضي الشرعي التنصيب، وذلك بإصدار حجة بالواقعة تسجل في المحكمة الشرعية[٥٥].

واشترط في شيخ الحرفة أن يكون رجل دين، مستقيماً قادراً على أداء واجبات المشيخة، واشتهر بحسن الأخلاق والفضيلة والعفة والاستقامة، وامتاز بمعرفة أصول الحرفة، ولا يشترط به أن يكون أكبر الحرفيين سناً، إذ يمكن أن يكون شاباً معروفاً بين أبناء حرفته، ومن قبل أرباب الحكومة. ويمكن أن تنتقل مشيخة الحرفة بالإرث، من الأب إلى الأبن، ولكن على أن يتم ذلك بموافقة معلمي الحرفة واختيارهم، إذا كانت تتوفر فيه الشروط المطلوبة. ومدة المشيخة لم تكن محددة، فقد يلبث فيها الشيخ، طيلة حياته شيخاً، ما لم يجر منه ما يوجب استبداله بسواه. ويتوجب على شيخ الحرفة أن يدعو لعقد مجالس يترأسها، للتداول مع المعلمين في مصالح الحرفة، وأن يحرص على توثيق أواصر الروابط بين أفرادها، وله وحده أن يشد بالكار المبتدئين الماهرين، إلى رتبة صنّاع أو معلمين، باحتفال علني، يحضره كل أفراد الحرفة، وتكون علاقة الحكومة معه، في كل أمر يختص بشؤون الحرفة[٥٦]. وإذا أخل الشيخ ومساعدوه بالثقة التي وضعت فيهم، حق لأفراد الطائفة المطالبة بعزلهم، ويوافقهم القاضي الشرعي عادة على ذلك إذا ثبت لديه صحة دعواهم، وطبقت المقاييس نفسها على الحرفيين، فالحرفي الذي يغش في عمله، يعامل بما يستحقه من الإهانة والحقارة، وهذا ما سوف نشير إليه لاحقاً، وظهر بين الطوائف الحرفية اتجاه نحو تطبيق العدالة الاقتصادية بين الحرفيين، فالشيخ هو المسؤول عادة، عن توزيع المواد الخام بالتساوي على أفراد الطائفة، ولكنه غالباً ما اقتطع لنفسه حصة ونصف الحصة[٥٧].



□ خلخال للقدم من الفضة أو النحاس الملبس بالفضة.

وكما أن لكل حرفة شيخاً يرأسها كذلك فإن لها شاويشاً، وعلاقته بشيخ الحرفة كعلاقة النقيب بشيخ المشايخ، والفرق بينهما هو أنه ليس للشيخ وحده أن يختار الشاويش، وإنما يجري اختياره أو انتخابه من قبل أهل الحرفة. وليس للشاويش أية سلطة قضائية على أهل حرفته، وإنما هو مجرد رسول للشيخ ومتمم لأوامره، يدعو بإذنه معلمي الحرفة وسائر أهلها للاجتماع، ويكلفهم لحضور الشد والولائم، ويبلغ أحكام العقاب لمن حكم عليه الشيخ بذلك. ويميل عادة إلى جانب الصناع عند مطالبتهم لمعلميهم بزيادة أجورهم، فيطوف على الصناع، ويحثهم على الثبات لنوال المقصود(٥٨).

أما فيما يختص بالمبتدىء في الصنعة أو الأجير، فهو الولد الحديث السن الداخل إلى الحرفة، سواء بغرض الاحتراف بحرفة، أو ليمتلك بيده ما يحمي مستقبله من العوز والفاقة. فيبقى عدة سنوات بلا معاش ولا أجرة، ويكتفي أهله بتعليل أنفسهم، أنه ساع بأخذ الصنعة عن أستاذه، وبعضهم يرتب له (جُمعية) أي أجرة تدفع له كل أسبوع، تكون متناسبة مع مهارته، ولكنه يبقى متصفاً بلقب أجير إلى أن يبلغ سن الرشد، أو إلى أن يتوصل في صنعته إلى حد الإتقان، فيطلق عليه لقب «صانع» وإن لم يكن قد شُدَّ بالكار بعد. أما أجرته، فتظل منخفضة، ولا يسمح له أن يفتح محلاً وحده ولحسابه. وهذا ما يدفع المبتدىء أن يطالب بإجراء احتفال الشدّ، آملاً بازدياد أجره يسانده على هذه المطالبة ويشجعه الشاويش وزملاؤه في الحرفة، وغرض الشاويش ما ينتظر أن يناله من رسوم الشد، وأما زملاؤه فلأنهم يبتغون ازدياد عددهم، وربط الداخل بعهود الإخاء(٥٩).

وبعد إتمام مراسم احتفال الشد، يعين أب بالكار للمشدود، ويكون أحد المعلمين الحاضرين، أو معلمه على الغالب، ويجوز له أن يتخذ سواه، لأن المعلم بالكار هو بمثابة كفيل مطالب بما قد يقع من المشدود من الخلل، فإذا كان الأخير غير ممدوح السيرة يتمنّع معلمه من قبوله ابناً له، ونادراً ما يحدث ذلك، فيعين حينئذٍ خلافه. ثم يقوم شيخ الحرفة بتقديم نصائح للمشدود، بأن يكون أميناً صادقاً متديناً، ويحذره من

الإفراط في أموال الزبائن وصيانة أبناء حرفته، ثم يلتفت إلى الحاضرين، ويسألهم رأيهم فيما إذا كان المشدود يستحق الترقية إلى «مصانعة» فيجيبونه «نعم مستأهل ومستحق»[٦٠]. ومن الصنّاع من يشد بالنهار نفسه صانعاً ومعلماً، والطريقة بذلك، أنهم عندما يسأل الشيخ قائلاً «ما قالت الأخوان هل يستحق مصانعة» يضيف إليه سؤالاً آخر قائلاً «هل يستحق معلمية» فإن كان مستحقاً يجيبوه بالإيجاب، وإلا فيقولون لطالب «حاجتك هلق مصانعة انشاء الله سنة الجاية تصير معلم»[٦١].

ويمكن للمحترفين من كل المذاهب الاشتراك بالشد، أما المسيحيون واليهود، فلا يعطون شيئاً من الشارات والعهود، بل يكتفي بشدهم بالمحزم وبتلاوة «أبانا الذي في السموات» للنصارى، أو بتلاوة الوصايا العشر في شد اليهود، ويسمون لهم آباء بالكار من المسلمين، ويأخذون منهم العهد والميثاق بأن لا يخونوا الحرفة، ولا يضروا بالأموال والعباد[٦٢].

وهذا الارتقاء إلى درجة صانع ومعلم، كان بمثابة المكافأة العظيمة التي ينتظرها عمال الحرف على اجتهادهم، إذ لم يكن هناك معارض عمومية أو خصوصية، ولا مسابقات، ولا جوائز، ولا حكومة تضمن لمن أتى بتحسينه، أو باختراع في فنه، أن يحصل على مكافأة مادية، أو امتياز يكفل له المستقبل، وينشط غيره إلى الاقتداء به[٦٣].

وكان هناك إجراءات تتخذ بحق كل من يسيء أو يغش في عمله، حفظاً للرابطة التي تجمع ما بين الحرف، وصوناً لأموال الناس، ومن هذه الإجراءات:

١ ــ كل من تثبت عليه خيانة أو سرقة يطرد من حرفته طرداً نهائياً، ولا يسمح له بعد ذلك بممارسة أي عمل آخر.

٢ ــ إذا ثبت أن أحد معلمي الحرفة أنقص الحجم المتعارف عليه لسلعة ما، كان شيخ الحرفة يحضرها، ويقصها، ويعلقها في السوق، فيصير صاحبها عبرة لمن اشتغل.

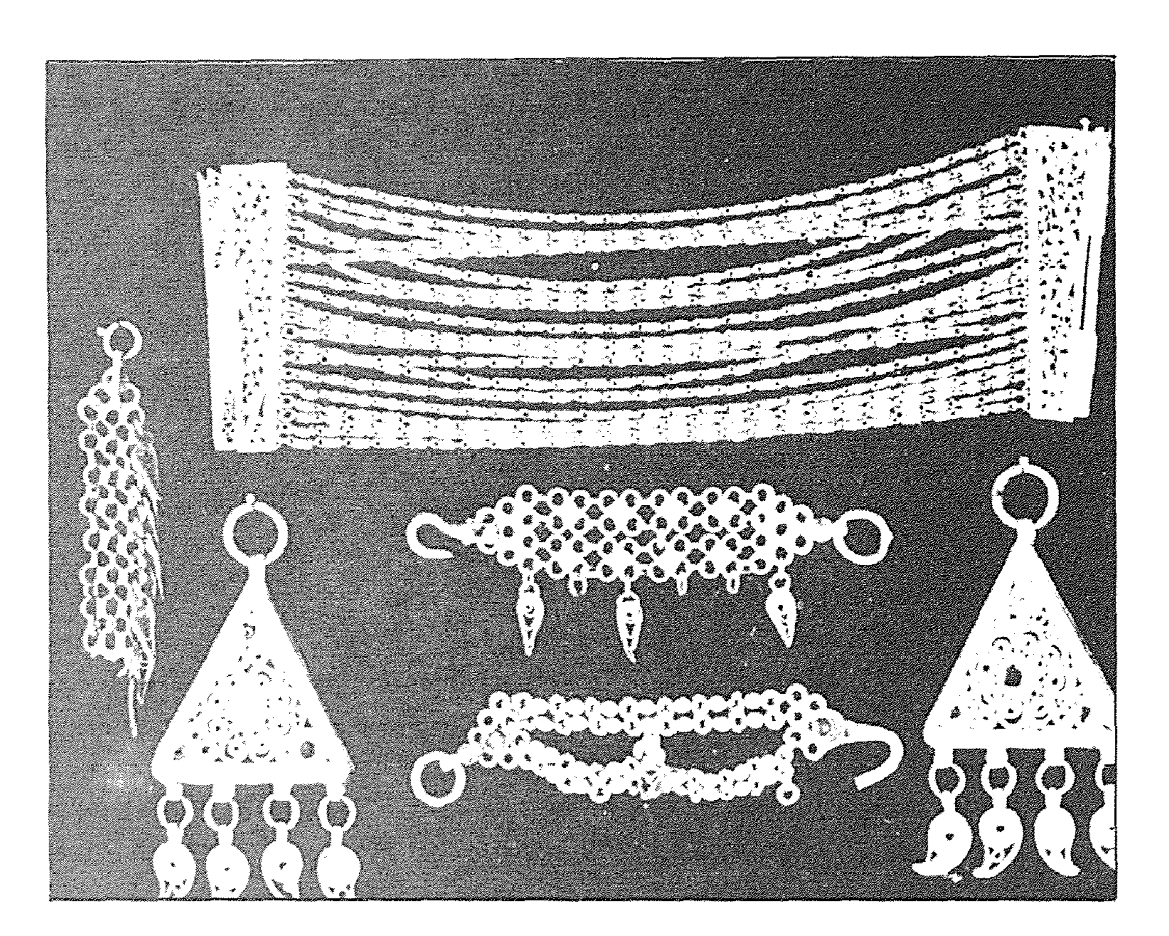
٣ ــ من ثبت عليه الغش بالحرفة، كان شيخ الحرفة يرسل الشاويش ليقفل دكانه ولا يعود بإمكانه فتحه إلا برضا الشيخ وأهل الحرفة.

٤ ــ إذا أدخل أحد الصياغ الغش والزغل في مزيج معادنه، فكان شيخ الصاغة يقلب له السندان على قفاه، ويبقى الصائغ متوقفاً عن عمله، إلى أن يحصل على رضا الشيخ.

٥ ــ إذا ثبت أن أحد معلمي الكار قد أخل بالروابط، فيعطونه عرقاً أخضر، دلالةً على أنهم يكلفونه بدعوتهم إلى وليمة، وتكاليف هذه الوليمة توازي الجزاء النقدي، وهو المصطلح عليه أكثر من غيره من أنواع القصاص.

٦ ــ من جملة القصاصات التي كانت جارية آنئذ، أنهم كانوا يقصون للمذنب خصلة من شعر رأسه[٦٤].

وبالإضافة إلى تقاليد الحرفة التي أشرنا إليها سابقاً، وجدت قيود شديدة تضيّق من ساحة الصنعة نفسها فرغم أنه كان بإمكان الصانع أن يترقى، ليصبح معلماً، ومن حقه بمجرد أن يتوصل إلى هذه المرتبة أن يفتح حانوتاً خاصاً به كمعلم حرفة، لكن من الناحية العملية لم يكن تنفيذ ذلك بالأمر السهل. فافتتاح حانوت يتطلب رأس مال لا يستهان به، لشراء خلو حانوت، بما في ذلك الأدوات اللازمة لعمله، ذلك أن عدد الحوانيت لكل طائفة كان محدداً بدقة، وهذا ما أعاق التوسع الصناعي الكلي. كما أن الحانوت لا يمكن أن يكون أبداً ملكاً لصاحبه، وإنما مستأجر من قبله، مقابل مبلغ معين من المال يدفع عنه سنوياً. فقد كان امتياز (كدك)، امتلاك دكان أو حانوت، أو ممارسة الصنعة بمعنى أوسع، نوعاً من الملكية، يمكن أن تباع وتؤجر، وتؤرث إلى أولاد المعلم بعد وفاته فالولد يقوم بعمل أبيه إذا كان قد وصل إلى رتبة صانع متمرن في الطائفة الحرفية نفسها. وإذا لم يكن كذلك، فإن هذا الامتياز يباع من قبل الورثة إلى أحد أعضاء النقابة الآخرين. ويمكن الحصول على امتياز جديد من السلطات، إذا دفع المعلم للخزينة مالاً مقدماً، شرط أن يثبت أنه يمتلك الأدوات الضرورية والوسائل اللازمة، لممارسة صناعته. وامتياز امتهان الحرفة الجديدة نوعان: امتياز محدود يسمح للمالك فيه أن يتابع عمله بمكان معين، وامتياز لا محدود يسمح للمالك فيه أن يمارس عمله في أي مكان



□ مجموعة الأساور والحلق والحلي الفضية ترجع إلى القرن الماضي.

يرغب فيه. والنوع الثاني نادر جداً، وغدا أندر مع الزمن، وذلك لرغبة الحكومة في شد قبضتها على الصناع، وهذا لا يتاح لها إلا إذا كان الصناع يعملون في حي واحد. وعلى هذا الأساس بقي صنّاع حرفة ما، كما كانوا في الفترة السابقة للاحتلال العثماني لبلاد الشام، يتجمعون في سوق واحدة. وهذا الأمر لا يزال واضحاً في مدن بلاد الشام، كدمشق وحلب وطرابلس وصيدا. وهذا ما سوف ندرسه بالنسبة للمدينة الأخيرة(٦٥).

وليس امتياز احتراف المهنة من احتكار فئة محدودة من الصناع فحسب، وإنما كانت الطرز التي يسمح لأعضاء النقابة القيام بها محدودة أيضاً ومقيدة. فالمصنوعات نفسها تتكرر، وتتكرر دون ما تعديل أو تجديد أو ابتكار، إذ إنّ النقابة وضعت شروطاً معينة، يجب أن تتوافر في تلك المصنوعات، دون النظر إلى التطور الاجتماعي الطارىء. ومع ذلك فإن هذا التطور كان بطيئاً من نفسه. كما تدخلت الحكومة هي الأخرى، فوقفت في وجه المنافسة الفردية، وحظرت بيع أية بضاعة من أي نوع كان فوق السعر الذي تحدده في كل موسم من الزمن. ولا يحق لأي صانع أن يصنع شيئاً غير المرخص به لنقابته، كما منعت إحداث أي تبديل في شكل البضاعة المصنوعة. وكان من نتائج هذه القيود تجميد الصناعة في قالبها القديم، وأفقدتها عنصر التجديد، وأضعفت في نفوس أفرادها روح الخلق والتحسين، فانحط مستواها الكيفي مع الزمن وقلّ عدد الراغبين فيها. والواقع أن تسعير الحكومة لمختلف البضائع، لم يكن قيداً للصناع فقط كأفراد، أو دفاعاً عن حقوق المستهلك، ومنعاً للمنافسة الضارة، وإنما كان موجهاً ضد استغلال النقابة كمجموع أو احتكارها. فالصناعة لم تكن تخضع لتقاليد النقابة وقيودها فحسب، وإنما لقيود الحكومة ومراقبتها أيضاً.

وتركت الحكومة العثمانية للقاضي مراقبة أعمال النقابات وشؤونها، ويساعده المحتسب، وبذلك أوجدت للمحتسب عملاً إضافياً إلى عمله الذي كان يقوم به في العهود الإسلامية السابقة للفتح العثماني، إذ كان في الماضي الأبعد يراقب

الأخلاق بعامة، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لكن عمله في الفترة العثمانية، غدا مراقبة طوائف الحرف، وما يمكن أن يتخللها من حركات ثورية تمردية ضد الحاكم، وجباية الضرائب المفروضة عليها، وكان يتقاضى أجره من ضريبة خاصة مفروضة على جميع التجار. أما القاضي فكان ينظر في الخلافات التي تنشب بين الصناع والمستهلكين بخاصة، والصنّاع وبعضهم، والصنّاع والتجار، ويصدر أحكامه المختلفة عليهم، ويقوم المحتسب بتنفيذ تلك الأحكام(٦٦).

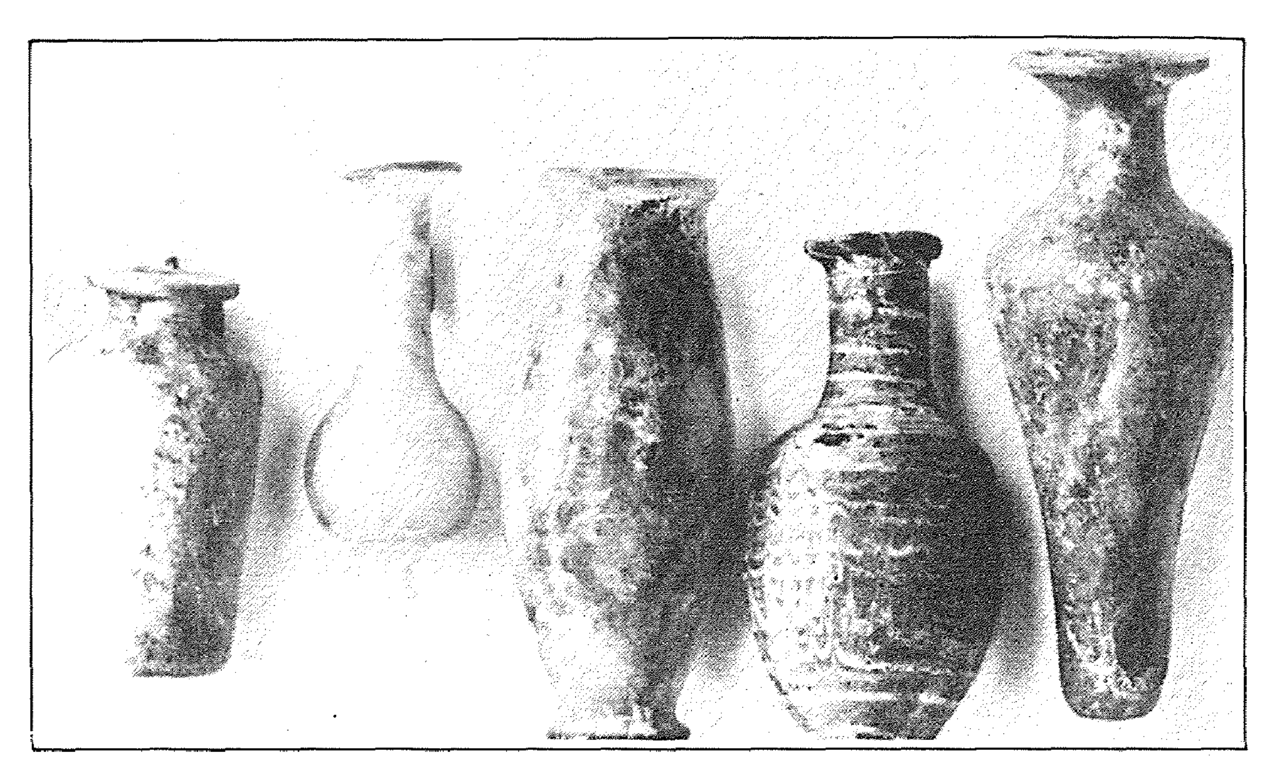
أما على الصعيد الإداري، فقد لعبت الطائفة الحرفية دوراً هاماً من حيث تنظيم العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة. فالسلطة تبلغ أوامرها إلى الحرفيين، عن طريق شيخ الطائفة، وبالمقابل يرفع الحرفيون مطالبهم إلى السلطة عن طريق الشيخ. وتبدو العلاقة واضحة بين الطرفين في مجال الضرائب، فهناك ضرائب ثابتة وأخرى عارضة. فالأولى أطلق عليها أحياناً تسمية أموال الميري (من أميري أي دولة) تجمع عن طريق الالتزام، وهو في الغالب لسنة، ويصعب معرفة الضرائب الثابتة من العارضة، وقد ذُكرت الأخيرة بتعابير مختلفة، مثل «تكاليف عرفية» أو «مال الأوردي» أو «العرضي» أي الجيش. وهي مدفوعات فرضتها الدولة لتمويل حملة أو غير ذلك، أما «مال المشيخة» فهو ما يفترض أنه مخصص لشيخ الطائفة. وأياً كان الحال، فقد كان من المتوجب على كل حرفي في الطائفة، المساهمة، حسب إمكاناته، في أداء الضريبة التي كانت تفرض بصورة جماعية. ويقوم شيخ الطائفة بمساعدة بعض الموظفين، بجمع أموال الضريبة من الأفراد بالطريقة التي يرونها(٦٧).

ويبدو مما ذكر آنفاً، أن الحكومة كانت تخشى هذه النقابات والحركات الخفية القائمة فيها، وليس هذا الخوف بمستغرب، لأن طوائف الحرف، كانت آنئذ متضامنة متعاونة قادرة أن تلعب دوراً خطيراً في المنحى السياسي لو أرادت. ولكن التركيب الديني الأساسي لها وانصرافها إلى أعمالها، سبب في ابتعادها عن التأثير السياسي، أو التوجيه الحكومي. وهذا ما دفع بعض المؤرخين، إلى تفسير تضييق المراقبة الحكومية على النقابات، إلى حماية الصناع أنفسهم من أنفسهم، لا إلى منع تمردهم وثوراتهم. أي أن هدف الحكومة من وراء عدم السماح بفتح حوانيت جديدة، إنما كان رغبة منها في تخفيف حدة المنافسة بين الصناع، وتوفير العمل الكافي للصناع الموجودين فعلاً، بخاصة وأن الجميع يعملون في حي واحد متجاورين. ولكن الواقع أن الدولة كانت حذرة من هذه الطوائف الحرفية، وإن بدت مسالمة في المرحلة الأولى من الاحتلال العثماني. وقد صدق توقعها هذا، خاصة وأن طوائف الحرف، ستكون مقراً لحركات تمردية عدة ولا سيما عندما انخرطت فيها فرق الانكشارية بعد فساد نظامها الأول.

ويتضح من كل ما قيل عن طوائف الحرف، أنها لعبت دوراً مزدوجاً في حياة المجتمع الشامي، فهي من ناحية قيدت الصناعة ومنعتها من الانطلاق والتقدم بعيداً، ومن ناحية أخرى حفظت الروابط والصلات بين أفراد المهنة الواحدة من التفكك والانحلال. وجعلت الصانع فرداً اجتماعياً صالحاً، قبل أن يكون اقتصادياً طموحاً، كما أنها حرصت على الاتفاق في المهنة، وحافظت على مستواها الفني. وأن تشبثها بمبادئها، رغم خنقها روح الإبداع، منع الفساد الخلقي من التفشي في نطاق الصناع، بسبب حرصها على الأخلاق الفاضلة المتسامية، وعلى مفاهيم الأخوة الصادقة في نطاق الحرفة الواحدة، وتعهدتها جميعاً بالرعاية والحماية، حتى عرف الصانع العربي والشامي بخاصة في أوروبا بالصدق والأمانة والإخلاص في عمله(٦٨).

ورغم ما ذكرناه سابقاً عن تراجع الصناعة في بلاد الشام وتقهقرها في بدء العهد العثماني، فإن هذه البلاد لم تفقد أهميتها الصناعية، وبخاصة في ميدان صناعة الأقمشة الحريرية والقطنية، وساعدها على ذلك اتصالها ببلاد الأناضول، بعد احتلالها من قبل العثمانيين إذ فتح هذا الاحتلال أمامها أسواقاً جديدة يمكنها أن تصرف منتوجاتها إليها، وبالفعل فقد ازداد إنتاج بلاد الشام الصناعي ولكنه فقد من كيفيته السابقة.

وسوف نحاول أن نستعرض أهم الحرف والصناعات الشعبية، التي تواجدت في مدينة صيدا في العهد العثماني، وذلك بالاستعانة بما



□ مجموعة من القوارير المختلفة الأشكال، مزخرفة وملونة عثر عليها في حفريات صيدا وترجع إلى العهد الروماني وتأثير الفن الفرعوني ظاهر في كثير منها (دار الآثار اللبنانية).

جاء في الوثائق الفرنسية التي يوالي نشرها د. عادل اسماعيل، وكذلك في ضوء أسماء العائلات الصيداوية التي تحمل ألقاباً حرفية، ومراكز الفعاليات الاقتصادية التي وردت في مصادر ومراجع تاريخ صيدا، ودراسة مفصلة لأهم وأبرز الصناعات والحرف الشعبية التي كانت سائدة آنذاك، في المدن الشامية العثمانية(٦٩).

وذكرت الوثائق الفرنسية الصادرة عن قنصلية صيدا في العام ١٨١١ أنه من أصل ١١,٥٠٠ نسمة من سكان المدينة كان بينهم ثلاثة آلاف وأربعمائة عامل موزعين على الحرف والصناعات الشعبية التالية: حدادين وصناع خلاقيين وأسلحة، ونقاشين، ودباغين وجلالتيه وسروجة واسكافيين، ونجارين وعمال خراطة على أنواعها، وعمال بناء وعمارة وطلس، وحاكة وخياطين ومطرزين، وبحارة وصيادين، وحوذيين وجمّالين(٧٠).

الحرف والصناعات الشعبية

أهمية الحرف: تعد الحرف والصناعات في المجتمع الإنساني عامة، من المؤشرات الدالة على طبيعة هذا المجتمع واتجاهاته، كما أنها تكشف، من ناحية أخرى، عن حال هذا المجتمع، من حيث درجة غناه، أو رفاهية أبنائه، أو العكس، وبقَدْر ما تتعدد الحرف والصناعات، وتتنوع في مجتمع ما، بقدر ما يتضح لنا مدى التطور والرقي الذي وصل إليه هذا المجتمع. فإذا تقلصت الحرف كما وكيفا، واختفت بعض الصناعات، كان ذلك علامة دالة على التدهور الاقتصادي والاجتماعي. وهذه الدراسة تهتم بالحرف التي عرفتها مدينة صيدا، في خلال القرون الأربعة الأولى من الحكم العثماني، وهي بهذا محاولة لتوضيح جانب من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها المدينة.

فقد ساعد النمو السكاني الذي عرفته مدينة صيدا، والذي سبق وأشرنا إليه، مع ظروف الاستقرار والأمن التي كفلتها السلطات العثمانية للمدينة، انعكست آثاره في حال من الرواج الاقتصادي والازدهار الاجتماعي تجلت من خلال أسواق المدينة، التي عرفت كافة أنواع البضائع الأساسية والكمالية، كما كانت هذه الأسواق بمثابة الواجهة التي كشفت عن مدى تنوع الحرف والصناعات المتعلقة بالحياة اليومية في



□ مجموعة من المكاحل والخواتم المختلفة الأشكال والألوان. عثر عليها في حفريات صيدا وترجع إلى العهد الروماني

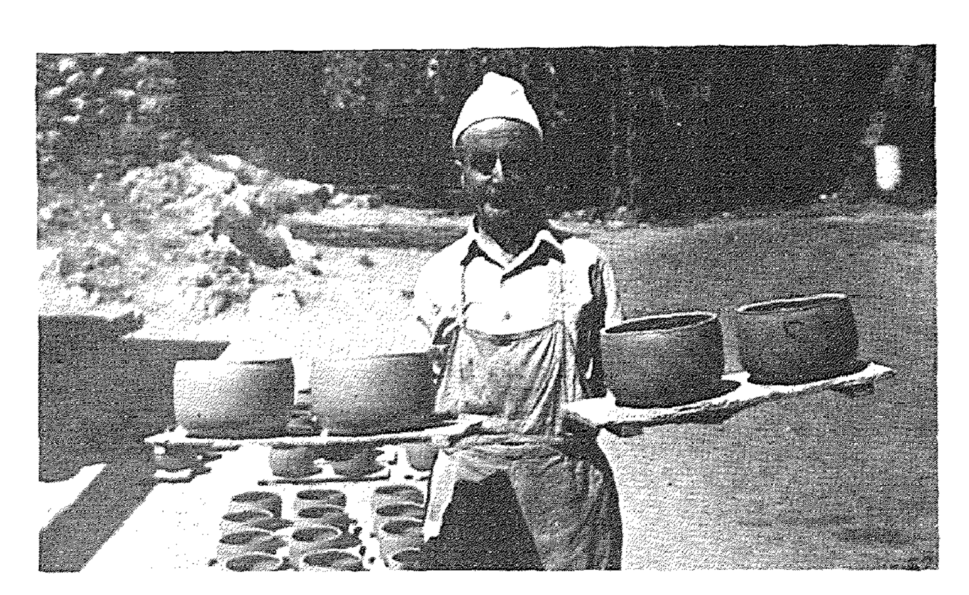
المجتمع الصيداوي.

بيد أن طبيعة النظام السياسي في ذلك العصر، وهو نظام إقطاعي عسكري، وعلاقته بالرعية، وطبيعة النظام الاجتماعي وهو بناء طبقي في أساسه واتجاهاته، هي التي فرضت إلى حد ما، أنواع الحرف والصناعات التي ازدهرت في خدمة المجتمع الصيداوي في حياته اليومية. كما أنها هي التي جعلت بعض هذه الحرف والصناعات ترتبط بالناس العاديين في حياتهم اليومية، في حين ارتبطت أخرى بالحكام والشريحة الاجتماعية الميسورة الذين استأثروا بالشطر الأكبر من ثروة المدينة ومواردها. وهكذا ازدهرت حرف وصناعات في خدمة الأغراض الاستهلاكية اليومية، وأخرى ارتبطت بحياة الحكام والشريحة الميسورة المولعين باقتناء التحف ومظاهر الرفاهية، فضلاً عن اهتمامهم بزينة ملابسهم وأسلحتهم وخيولهم، وحرصهم الزائد على مظاهر الأبهة والعظمة في مواكبهم[٧١].

حرف الغذاء

لعله من المفيد أن نبدأ هذه الدراسة بحرف الغذاء، باعتبار أن هذه الحرف تعد من أكثر الحرف ارتباطاً بالمجتمع في حياته اليومية، وأكثرها تعبيراً عن اتجاهات هذا المجتمع، ومدى ثرائه أو فقره. كما تكشف دراسة بعض أنواع هذه الحرف عن بعض عادات الصيداويين الاجتماعية في مجال الغذاء. ومن خلال أسماء أسواق ذلك العصر وحرف التغذية التي خَلَعت أسماءها على بعض العائلات الصيداوية، ومن خلال الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالغذاء، من خلال كل ذلك يمكن التعرف على كثير من حرف التغذية التي كانت سائدة آنذاك، والتي كانت منتشرة في جميع أنحاء المدينة، وهو أمر يتمشى بشكل طبيعي مع توزيع التجمعات السكانية. وقد أحصت لنا المصادر التاريخية المتوفرة، الحرف المتصلة بالغذاء، وكانت تتوزع ما بين الفرانين واللحامين والرواسين وصناع الحلوى والمعاصر والمطاحن وصيد الأسماك.

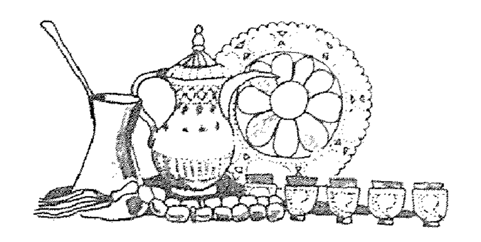
وكمدينة بلغ عدد سكانها ما يقارب أحد عشر ألف نسمة في العام ١٨١١[٧٢]، كان من الضروري وجود أفران تهتم بصناعة الخبز لهذا العدد من السكان، وجرت العادة أن يستأجر فرّان فرناً، ويؤمن له ما يحتاجه من عمّال، كرئيس ومعجنة ومبشكر وغير ذلك، على أن يراعي شروط الصحة العامة والنظافة والطهارة في أثناء خبز العجين. وكان بعض الفرّانة يخبز سوقياً، أي تصنيع الخبز وبيعه جاهزاً في الأسواق والحوانيت، مما كان يمكن بعض هؤلاء، من جمع ثروات طائلة، نتيجة الغش اعتادوا ممارسته، سواء من حيث صنع خبز من دقيق رديء وبيعه للمشترين على أنه من الدقيق الجيد، أو إخراج الخبز من بيت النار قبل نضوجه التام، لكي يثقل وزنه في الميزان، وبعضهم كان يختلس من الزبائن الرغيف والرغيفين كما كان بعض الفرّانة يخبز بيتياً، وهو ما أعد عجينة في البيوت، ويأخذ مقابل ذلك عدد من الأرغفة، ومن الواجبات الملقاة على هؤلاء أن يكون لديهم امرأة



□ صانع الفخار، وقدوره.

جليلة، لكي تدور على منازل الزبائن لاستلام العجين منها: لصيانة حريم المسلمين عند تسليمهن العجين لغير ذي محرم، فإذا عجز عن تأمين امرأة لهذا الغرض، فليتخذ له صبياً ديناً أميناً، لم يبلغ سن الحلم، فإذا دخل بيوت المسلمين في وقت لا يكون في البيت إلا النساء: أخذ العجين من على الباب، وذهب لسبيله(٧٣). ويلاحظ أن أفران صيدا، قد انتشرت في الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي لباطن المدينة، بالمقارنة مع انتشارها في وسطها وغربها، فكان هناك: فرن البيليك قرب باب البلد الفوقاني، وفرن جار في جامع بطاح في باب البلد الفوقاني، وفرن بني عسيران في حارة الزويتين قرب محلة بوابة الخيمة وفرن علي جمعة في محلة الخندق قرب السور، وفرن الباليك في محلة الشارع المزيودي لصيق حارة المزبودي، وفرن الساحة شمالي حارة البير وقف بني السقي، وفرن الزيباوي في حارة الموارنة(٧٤). ومما ينبغي الإشارة إليه، إن هذه الحرفة كانت رائجة، ويمكن أن تؤمن لصاحبها ربحاً وفيراً إذا أخلص في عمله، ذلك أن بعضهم كان يغش طحينه الحنطة ويضيف إليه طحين الفول والحمص والكرسنة مما تأكله البهائم(٧٥).

ويرتبط بحرف صناعة الخبز حرفة طحن القمح وغيره من الحبوب، ووجدت المطاحن خارج البلدة على ضفاف نهر الأولي، لأنها كانت تدور بقوة الماء، وأطلق «طحّان» على المعلم الذى يدير المطحنة، وحددت مصادر تاريخ صيدا، مواقع هذه المطاحن وهي: طاحونة الرحا المعروفة بطاحونة الأمير، وتشتمل على ثلاثة أحجار مطبقة، تديرها مياه الأولي، ومطحنة مقيدح في شمال قناة الخاسكية، ومطحنة في بستان اليهودي بالقرب من نهر البرغوت(٧٦). ويمكن تصنيف هذه المطاحن إلى صنفين: الصنف الأول وهو ما اختص بتحضير الطحين السوقي، أما الثاني فهو ما اختص بتحضير الطحين البيتي. فالطحين السوقي، وهو الذي يباع في الأسواق ويوزع على الفرّانة على حسب طلبهم، ويقوم بتوزيعه وبيعه الطحّان ذاته، وهي حرفة مهمة تدر أرباحاً وفيرة، ذلك أن بعض أربابها كانوا يعمدون إلى غش أصناف الطحين، بأن يخلطوا رديء الحنطة بجيدها وعتيقها بجديدها، وربما يخلطوا فيه دقيق الحمص والفول والذرة. أما عن الطحين البيتي فقد كان معظم الأهالي في المدينة لا تميل أنفسهم إلى أكل الطحين السوقي، ولذا كانوا يقومون بشراء الدقيق ثم ينظفونه في منازلهم، ثم يرسلونه إلى الطحّان البيتي، الذي يتقاضى عن كل مد أجراً معيناً(٧٧). ومن واجبات طحانين الدقيق البيتي أن لا يمكنوا من يتسلم قمح الناس إلا شخصاً أميناً عفيفاً عن المفاسد يدخل بيوت الزبائن ويخاطب أولادهم وجواريهم ويحملها بأمانة إلى الطاحون، وأن يأخذ الدقيق بالوزن ويسلمه بالوزن من غير نقص(٧٨). ●



الحــواشي

(١) ARVIEUX, (clevalier d'). Mémoires du chevalier d'Arvieux, v. 4, p. 327: طلال المجذوب. تاريــخ صيدا الاجتماعي، ص ١٣.
(٢) ABDEL-Nour, Antoine introduction à l'histoire urbaine de la syrie ottomaine, p. 76.
(٣) عفيف مرهــج. إعرف لبنان، ج ٦ ص ٢٩٢.
(٤) المكان نفسه.
(٥) ملاحظة في تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٣٠ حدث هيجان في استامبول، ذلك أن مسلمي العاصمة كانوا مستائين من سياسة الصدر الأعظم الداماد إبراهيم باشا، الذي تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ ــ ١٧٣٠)، القاضية بإدخال إصلاحات إلى النظم العسكرية العثمانية والأسلحة الحديثة. فقد اعتقد معارضوا هذه النظم الإصلاحية، أن أي تجديد من شأنه أن يضعف النظام العثماني برمته، فقاد بعض قادة الانكشارية والعلماء حركة عصيان داخلي، انتهت بقتل الصدر الأعظم وبقية زعماء الإصلاح، كما أجبروا السلطان أحمد الثالث، إلى التخلي عن العرش لصالــح ابن أخيه محمود الأول (١٧٣٠ ــ ١٧٥٤). لمزيد من المعلومات انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى. أصول التاريــخ العثماني، ص (١٥٨ ــ ١٦١).

SHAMIR Shimon. The Azm Walis of Syria (1724-1785), pp. (57-58).
(٦) ABDEL-NOUR. op.cit. , p. 350.
(٧) السيد عبد العزيز سالم. تاريــخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ص ١١٦.
(٨) MARMADJI, (O.P.) Textes geographiques arabes sur la palestine, p. 126.
(٩) EISLEN, Frederic carl. SIDON a study in oriental history, p. 103.
(١٠) Loc. cit.
(١١) ABDEL-NOUR. op.cit. p. 351.
(١٢) Ibid. p.76.
(١٣) Ibid. p. 351.
(١٤) السيد عبد العزيز سالم. مرجــع سابق، ص (١٨٩ ــ ١٩٠).
(١٥) عفيف مرهــج. مرجــع سابق، ج ٦ ص ٢٩٢.
(١٦) ملاحظة: جبل الدروز: نعني بجبل الدروز المنطقة الجبلية الممتدة من جسر نهر الكلب وحتى نهر الأولي، وبعد ١٧١١ صارت تطلق هذه التسمية على القسم الجنوبــي من حوران بعد هجرة اليمنيين الدروز إليه من المقاطعات اللبنانية.
(١٧) ملاحظة: جبل عامل. أطلقت هذه التسمية على المنطقة الممتدة من نهر الأولي شمالاً حتى الرأس الأبيض جنوباً، ومن بحر المتوسط غرباً حتى بحيرة الحولة بعرض ثمانين كيلومتراً شرقاً. وهي منطقة منبسطة تشمل هضاباً وسهولاً داخلية وساحلية تخترقها أنهار وجداول. لمزيد من المعلومات انظر: محسن الأمين. خطط جبل عامل، ج ١ ص ٣٤ وما يليها؛ Charles-Roux, (F). Les Echelles de Syrie et de Palestine, p. 27.
(١٨) ABDEL-NOUR. op.cit., p. 352.
(١٩) عفيف مرهــج، مرجــع سابق، ج ٦ ص ٢٩٣.
(٢٠) op.cit., p. 352.
(٢١) ARVIEUX. OP.CIT., T. 4, p. 301.
(٢٢) ABDEL-NOUR. op.cit., p. 352.
(٢٣) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر، ج ٢ ص ٣٤.
(٢٤) إدوارد لكروي. أحمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين، ص ٤٢.
(٢٥) محمد رفعت رمضان. علي بك الكبير، ص ١٦١.

(٢٦) لمزيد من المعلومات انظر: المرجــع نفسه. ص ١٦١ وما يليها؛ إدوارد لكروي. مرجــع سابق، ص ٤٢ وما يليها؛ فولني. ج ١ ص ٥٠ وما يليها؛ حيدر الشهابــي. الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، ج ١ ص ٦٨ وما يليها؛ حنانيا المنير. الدر المرصوف في تاريــخ الشوف (١٦٥٧ ــ ١٨٠٧)، **المشرق** م ٤٩ ص ٢٥٥ وما يليها؛

(٢٧) RAFEK, (A.K). The province of Damascus, pp. 249 FF; CHARLES-ROUX. op.cit., pp. 87 FF; ISMAÏL, Adel. Documents Diplomatiques et Consulaires..., t. 2, pp. 166 FF; COHEN, Amnon. palestine in the 18th century, pp. 98 FF; A.E.B[1] 1035 seyde le 23/5/1772. 21/5/1772 (Bulletin), 2/6/1772.

ملاحظة: تشير الأحرف الثلاثة الأولى إلى رمز المجموعة وهي من وثائق دار الوثائق القومية في باريس، (Archives Nationale de Paris) والأرقام التي تليها إلى رقم السجل ويليه المركز القنصلي الصادرة عنه الوثيقة ثم التاريــخ في اليوم والشهر والسنة.

(٢٨) Masson, Paul. Histoire du commerce Français dans le Levant au 18=[e], p. 518.

(٢٩) أحمد آغا الدنكزلي هو حاكم مدينة صيدا من قبل ظاهر العمر وعلي بك: وقد عين في هذا المنصب من قبلهما بعد احتلال قواتهما المشتركة للمدينة. لمزيد من المعلومات انظر A.E.B[1] 1035 seyde le 9/11/1771.

(٣٠) A.E.B[1]1035 seyde le 2/6/1772.

(٣١) لمزيد من المعلومات راجــع: مخايل الصباغ. تاريــخ الشيــخ ظاهر العمر، ص ١٤٦ وما يليها، فولني. مصدر سابق، ج ١ ص ٨٥ وما يليها؛ إدوارد لكروي. مرجــع سابق، ص (١٣٢ ــ ١٣٣)؛ عبود الصباغ. الروض الزاهر في تاريــخ ظاهر، ص (٣٥ ــ ٣٦)؛ حنانيا المنيّر. مرجــع سابق، **المشرق** م ٥٠ ص ١٩٥؛ مخايل بريك. تاريــخ الشام. ص ١٠٤ AMNON. op.cit., p. 50; A.E.B[1] 1037 seyde le 2/9/1775 (joint la lettre de M. Martin) (Bulletin), 30/5/1775.

(٣٢) المتسلم. شغل منصب متسلم في الجهاز الإداري العثماني موظفان كان كلاهما بمثابة نائب للوالي، فقد أطلق هذا اللقب على حكام السناجق أو المقاطعات الصغيرة أو المدن الهامة، وأيضاً على نائب الوالي العثماني في عاصمة الولاية، وكانوا يقدمون بجمــع الضرائب وإرسالها إلى الحكام الأصليين.

(٣٣) Olivier, (G.A.) voyage dans l'Empire ottomane..., v. 4, p. 98.

(٣٤) حسين سليمان. (بيروت ودمشق تحتلان مكانة صيدا وحلب الاقتصادية) مجلة **تاريــخ العرب والعالم** السنة الثالثة العدد ٣٥، أيلول (سبتمبر) ١٩٨١، ص (٤٨ ــ ٥٥).

(٣٥) لمزيد من المعلومات انظر: لكروي. مرجــع سابق، ص ١٩٠ وما يليها؛ حيدر الشهابــي. الغرر، مصدر سابق، ج ١ ص ١٤٣؛ حنانيا المنير. مصدر سابق، **المشرق** م ٥٠ ص ٤١٨ وما يليها؛ نوفل نعمة الله نوفل. كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام. ص ١٤٣؛ A.E.B[1]204, seyde correspendance entre Renaudot consul de France en Acre et Beaussier vice consul de France en seyde 1789.

(٣٦) إبراهيم العورة. تاريــخ ولاية سليمان باشا العادل، ص (٢٥ ــ ٣٢).

(٣٧) ISMAÏL, op.cit., t. 3, p. 105.

(٣٨) ARVIEUX. OP.CIT., T. 1, pp. (301-302).

(٣٩) عبد الكريم غرايبة، سورية في القرن التاســع عشر، ص ١١٠.

(٤٠) ABDEL-NOUR. op.cit. p. 355.

(٤١) Ibid. p. 77.

(٤٢) لمزيد من المعلومات حول مظالم الولاة العثمانيين لرعاياهم انظر: أحمد البديري الحلاق. حوادث دمشق اليومية، ص ٥٥ وما يليها.

(٤٣) السيد عبد العزيز سالم. مرجــع سابق، ص ٢٢.

(٤٤) فولني. مصدر سابق، ج ٢ ص ٣٣.

(٤٥) ABDEL-NOUR. op.cit. pp. (351-352).

(٤٦) غسان سنو. مدينة صيدا (١٨١٨ ــ ١٨٦٠)، ص ١١٠.

(٤٧) ليلى الصباغ. مرجــع سابق، ص (٦٧ ــ ٦٨).

(٤٨) هاملتون جب وهــارولد بون. المجتمــع الإسلامي والغرب، جــزءان، تر. ، أحمــد عبد الرحيم مصــطفى، ج ٢ ص (١٤٠ ــ ١٤١).

(٤٩) علي الحسني. تاريــخ سوريا الاقتصادي، ص (١٦٩ ــ ١٧٠).

(٥٠) المرجــع السابق، ج ٢ ص (١٢١ ــ ١٢٢).

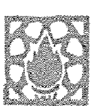
(٥١) ليلى صباغ. المجتمــع العربــي السوري في مطلــع العهد العثماني، ص (٧١ ــ ٧٢).

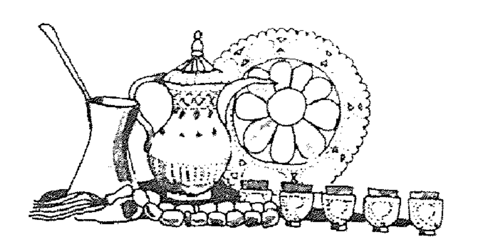
(٥٢) إلياس بن عبده بن قدسي. «نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية»، قدمها للمجمــع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليون، عام ١٨٨٣، ونشرت في: Landberg, Carlo. Actes du VI=[e] congrès des Orientalistes، انظر ص (١٠ ــ ١١).

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٥٤) المصدر نفسه. ص (١٢ ــ ١٣).

(٥٥) عبد الكريم رافق. بحوث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في بلاد الشام في العصر الحديث، ص (١٦٤ ــ ١٦٥).
(٥٦) المصدر السابق، ص ١٣.
(٥٧) عبد الكريم رافق. مرجع سابق، ص ١٧٩.
(٥٨) إلياس قدسي. مصدر سابق، ص ١٥.
(٥٩) المصدر نفسه. ص (١٦ ــ ١٩).
(٦٠) المصدر نفسه. ص (٢٤ ــ ٢٥).
(٦١) المصدر نفسه. ص (٢٨ ــ ٢٩).
(٦٣) المصدر نفسه. ص ٢٩.
(٦٤) المصدر نفسه. ص (٣١ ــ ٣٣).
(٦٥) ليلى الصباغ. مرجع سابق، ص (٧٧ ــ ٧٨).
(٦٦) المرجع نفسه. ص (٧٨ ــ ٧٩).
(٦٧) عبد الكريم رافق. مرجع سابق، ص ١٨٠.
(٦٨) ليلى الصباغ. مرجع سابق، ص (٧٩ ــ ٨٠).
(٦٩) محمد سعيد القاسمي. قاموس الصناعات الشامية، جزءان في واحد.
(٧٠) ISMAIL, Adel. Documents diplomatiques et consulaires, relatif à l'histoire du Liban et du pays du proche Orient, v. 3 p. 105.
(٧١) قاسم عبده قاسم. دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك، ص ١١٧ ــ ١١٨.
(٧٢) op.cit., t. 3 p. 105.
(٧٣) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفارسي المعروف بابن الحاج. المدخل إلى الشرع الشريف، ج ٤ ص (١٧٦ ــ ١٨٥).
(٧٤) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص (١٢٤ ــ ١٢٥).
(٧٥) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٢١.
(٧٦) مرجع سابق، ص ١٤١.
(٧٧) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٢٩٠ ــ ٢٩١).
(٧٨) محمد بن محمد بن أحمد القرشي، المعروف بـ (ابن الإخوة). المدخل إلى الشرع الشريف، ج ٤ ص ٩٠.





● هنا في هذه الدنيا إنما نحن جنود نحارب في أرض غريبة، ولا نفهم خطة القتال؛ وليس بنا من حاجة إلى فهمها ما دمنا نرى جيداً واجبنا القريب منا. فدعنا نقم به كجنود في خضوع وشجاعة وسرور ينم عن البطولة.

«كارليل»

● إعمل الواجب القريب منك.

«جيتي»

● إذا كنت تحب الحياة، فلا تضع الوقت سدى؛ لأن الوقت هو المادة المصنوعة منها الحياة.

«فرنكلين»

الغـزو الإستعماري الفرنسي للجزائر في وثيقة أميركيَّة معاصِرة



د. منصور احمد بوخمسين

نقدم للقراء وثيقة أميركية عثر عليها الباحث، الدكتـور منصور أحمـد بو خمسين الأستاذ بدائرة التاريـخ في جامعة الكويت، في دار الوثائق الأميركية في واشنطن العاصمة، والوثيقة عبارة عن تقرير مطول كتبه قنصل الولايات المتحدة الأميركية في مدينة الجزائر «هنري لي» وهو مؤرخ معروف، إلى وزير الخارجية الأميركي «فان بيرن» بعد عشرة أيام من الاحتلال الفرنسي لتلك المدينة. ويهدف الباحث من خلال دراسة هذه الوثيقة وترجمتها إلى تقديم ما بها من معلومات إلى جانب إبراز ما يمكن أن تضيفه الوثائق غير الفرنسية من معلومات وتلقيه من ضوء على العديد من قضايا تاريـخ الجزائر الحديث، إذ يعطي التقرير وصفاً شبه محايد لحادثة الغزو ويضيف بعض المعلومات الجديدة حول تلك الحادثة ويفند بعض الادعاءات الفرنسية التي شاعت منذ أيام الغزو وحتى الآن.

● المصدر: حوليات كلية الآداب ـ جامعة الكويت ـ الحولية التاسعة ـ ١٤٠٨ ـ ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨م، الغزو الفرنسي للجزائر في وثيقة اميركية معاصرة ـ د. منصور أحمد بو خمسين ـ قسم التاريـخ ـ جامعة الكويت.

* لقد نشرنا هذه الوثيقة الهامة كاملة، ولكننا اضطررنا، بسبب ضيق المساحة، لأن ننشر ملخصاً «للتحليل»، مراعين النقاط الرئيسية التي وردت فيه.



كان نزول القوات الفرنسية في سيدي فرج في ١٤ يونية ١٨٣٠، وماتبعه من احتلال لمدينة الجزائر في ٥ يولية ١٨٣٠، واحدة من أهم العلامات في تاريخ المواجهة بين أوروبا والعالم الإسلامي وإيذاناً بافتتاح حقبة جديدة من حقب تاريخ المغرب العربي بل والعالم العربي كله. كانت تلك الواقعة بداية لأهم وقائع الاستعمار الذي تعرض له العالم العربي في العصر الحديث. وتأتي تلك الأهمية من العنف والشدة والتوتر الذي رافق ذلك الاستعمار، والبعد الذي وصل إليه من إسكان وتوطين لأكثر من مليون أوروبي على أرض الجزائر، والمدة التي استمر فيها ذلك الاستعمار، والعنف والعذاب والتضحية التي كلفتها إزالته.

لقد كان احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر بداية عصر جديد، عصر الهيمنة الأوروبية، الذي بسط الغرب خلاله يده على مقادير الشرق لفترة امتدت لأكثر من قرن من الزمن. ولقد أدرك الفرنسيون منذ فترة مبكرة أهمية هذا الحدث. فلقد قام العديد ممن شاركوا فيه بكتابة مذكراتهم وانطباعاتهم عنه[١]، وتم حفظ وتنسيق العديد من الوثائق المتعلقة به[٢]، وكل ذلك يسّر للمؤرخين الفرنسيين عملية البحث والتوثيق فأشبعوا واقعة احتلال مدينة الجزائر بالدراسة والتدقيق[٣].

أما من الجانب الجزائري فلم يصلنا من الوثائق المعاصرة أو شهادات شهود العيان إلا أقل القليل. فمن الوثائق العثمانية لم يتيسر للباحثين إلا ما استخدمه أرجمنت كوران في كتابه عن السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر[٤]. ولم يصلنا من شهادات أو ملاحظات المدافعين عن الجزائر إلا ثلاث، الأولى لموظف عثماني كان موجوداً في الجزائر خلال الاحتلال هو أحمد أفندي[٥]، والثانية لعثمان بن حمدان خوجة أحد كبار موظفي أيالة الجزائر في كتابه المرآة[٦]، والثالثة للحاج أحمد باي حاكم ولاية قسنطينة، التي ضمنها في مذاكراته التي كتبها على لسانه بعد أسره أحد ضباط الاحتلال الفرنسي[٧].

كل ذلك جعل الصورة التي تم رسمها لعملية الغزو صورة ناقصة مشوهة. إذ في غياب الوثائق ووجهة النظر الجزائرية ساد التوثيق والتفسير الفرنسيين لكل جوانب تلك الواقعة.

تحليل الوثيقة:

لعل أول ما يلفت الانتباه في الوثيقة هو تذبذب عواطف كاتبها واضطرابه الذي لا يخفيه الأسلوب الأدبي المفتعل والمشحون بالجمل الطويلة المعقدة والكلمات الغريبة والأساليب البلاغية. فالرجل قد شهد لتوه وشارك في حدث تاريخي يدرك أهميته القصوى ويلمس تعدد دلالاته، وتبعث كل واحدة من هذه الدلالات في نفسه انفعالاً مختلفاً. فإحساسه بأن الجزائر قد وقعت ضحية لعدوان فرنسا، جعله يتعاطف مع الجزائر وأهلها الذين استبسلوا في الدفاع عنها، ولكن ذلك العدوان ما هو إلا بداية للهيمنة الأوروبية على الشرق الذي أخذت قواته تتراجع أمام الزحف الأوروبي الغربي، وهذا ما أثلج صدر صاحبنا وبعث في نفسه شعوراً بالفخر والاعتزاز لم يملك إلا أن يعبر عنه بحماس شبه ديني. وليس هنالك من شك في أن تذبذب الكاتب، ما هو إلا انعكاس لتذبذب موقف الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها. فهذه الدولة كانت قد نالت منذ فترة قصيرة استقلالها من براثن الاستعمار البريطاني، ولكنها ما كادت تقف على عودها حتى بدأت بالتحول إلى دولة توسعية استعمارية.

أولاً: حجم قوة الدفاع الجزائرية:

يؤكد الكاتب في هذه الوثيقة على أن الجيش الجزائري المدافع، كان في كافة المعارك التي خاضها ضد الفرنسيين، أقل عدداً من الجيش الفرنسي المقابل له. وهي معلومة مخالفة تماماً لما هو سائد في المصادر والمراجع الفرنسية. فلقد درجت كافة هذه المصادر على إيراد الإحصاء الرسمي للقوات الفرنسية وهو ٣٧,٦٠٠ مقاتل[٨] وتقدير القوات الجزائرية بخمسين ألف مقاتل[٩] وبذلك تكون القوة الجزائرية متفوقة على القوات الفرنسية بأكثر من عشرة آلاف مقاتل.

ثانياً: عدم فعالية البحرية الفرنسية:

لقد أشار بعض المؤرخين للغزو الفرنسي في كتاباتهم إلى هذه النقطة بصورة عابرة، ولكن «لي» يعطينا في وثيقته صورة حية لهذا الجانب المهم من جوانب الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر. فهو يصف وصفاً دقيقاً الهجومين اللذين قامت بهما تلك البحرية، والسفن التي اشتركت فيهما والتي كانت تضم سفينتين بخاريتين، ورغم قيام تلك السفن بقصف مركز وكثيف للتحصينات الجزائرية، إلا أن فعالية ذلك القصف كانت معدومة، وهنا لا بد من القول إن تعليل الكاتب لذلك الفشل كان غير موفق. فهو يعزو ذلك الفشل لعدم مهارة الفرنسيين عموماً في الفنون البحرية، وتخاذل الأسطول الفرنسي وعدم رغبته أو استطاعته الاقتراب من الشاطىء، بينما السبب في رأيي هو حصانة الدفاعات الجزائرية وتسليحها الجيد. إذ يجب ألا يغيب عن الأذهان أن تلك التحصينات وتسليحها كان قد تم تجديدهما بعد حملة اللورد اكسموث على مدينة الجزائر في أغسطس ١٨١٦[١٠]. ويبدو أن ذلك التجديد قد قام بالفعل بتحويل المدينة إلى حصن يصعب اختراقه من جهة البحر. وقد يكون من سخرية القدر أن يكمن في هذا النجاح سر سقوط الجزائر في يد الفرنسيين. إذ قامت الخطة الفرنسية على مهاجمة الجزائر من الخلف ولو كان موقع سيدي فرج أو قلعة برج مولاي الحسن بحصانة الواجهة البحرية نفسها لكان مصير الهجوم الفرنسي على الجزائر المصير الفاشل نفسه للهجمات الأوروبية السابقة. ولكن يبدو أن اطمئنان حكام الجزائر لحصانة المدينة وركونهم لذلك جعلهم يفقدون الحذر ويتكاسلون عن بذل الجهد المناسب للرد على التهديد الفرنسي الذي كانوا على علم كامل به وبتفاصيله. فهم لم يقوموا باستدعاء القوات النظامية من وهران وقسنطينة، أو زيادة عدد القوات النظامية الموجودة في الجزائر، إذ يخبرنا الكاتب أن الداي قد اعتمد على عرب وبربر الجزائر غير النظاميين، كما لم ينفق ما يلزم من خزائنه المليئة بالذهب، تلك الخزائن التي وقعت فريسة في يد الفرنسيين، على وسائل الدفاع وتجنيد الجيوش. وتتفق هذه الرواية التي يوردها هنري لي مع تلك التي أوردها كل من حمدان بن عثمان خوجة والحاج أحمد باي[١١].

ثالثاً: انتقال الجزائر من الحكم العثماني إلى الحكم الفرنسي:

إن ما يثير الدهشة حقاً في هذه الوثيقة هو إدراك كاتبها لخطورة ما أقدم عليه الفرنسيون وغفلة الأخيرين بهذا الخصوص إذ بينما اعتبر الفرنسيون استيلاءهم على مدينة الجزائر وكأنه احتلال لكافة أنحاء الإيالة[١٢]، نجد لي يصرح بأن سلطة الفرنسيين لن تتجاوز مدى بنادقهم وفي هذا التصريح دليل واضح لدى إدراك لي لطبيعة الحكم في الجزائر ومعرفته، بأحوالها السياسية في ذلك الوقت. فهو يدرك أن سلطة حكومة الداي لم تكن نابعة من التسلط الفعلي أو القسري لتلك الحكومة على المجموعات الجزائرية المختلفة، بل كانت تلك السلطة مستمدة من قناعة دينية لدى الجزائريين واعتراف منهم بشرعية الحكومة العثمانية. وهو ما أسماه بسلطان الفتح القديم[١٣] وذلك على عكس الفرنسيين الذين نظروا إلى السلطة العثمانية كسلطة استعمارية لن يجدوا صعوبة في استبدالها والحلول محلها. وهو لذلك يتنبأ بأن احتلال بقية الجزائر ستكون مسألة مختلفة تماماً عن احتلال المدينة ولقد أثبتت الأيام صحة وجهة نظره.

رابعاً: ممارسات القوات الفرنسية:

تعطي الوثيقة إحساساً عارماً بالفوضى والاضطراب اللذين رافقا وصول القوات الفرنسية إلى ضواحي مدينة الجزائر. فإلى جانب نهب البيوت والممتلكات التي بقيت سليمة وآمنة طوال فترة سيطرة الجزائريين رغم خلوها من السكان، نجد الكاتب يقرر أن وحشية الفرنسيين تجاوزت وحشية البرابرة. فهم يمارسون دون اعتراض من رؤسائهم أعمال السلب والنهب وإتلاف الممتلكات وإزهاق الأرواح في كافة البيوت العائدة للعرب واليهود وهي حقيقة أغفل ذكرها معظم مؤرخي الحملة من الفرنسيين[١٤] رغم تأكيدها من قبل ضحايا الغزو الفرنسي سواء في



□ مدينة الجزائر ومرساها في القرن الثامن عشر.

الجزائر أو خارجها، والسبب في ذلك عائد لكون الجيوش الفرنسية، ومنذ الحروب النابليونية، اتبعت لنفسها نهب المناطق التي يمرون بها كمصدر أساسي لتموين الأفراد والضباط[١٥].

وقد تحول هذا الأسلوب إلى تقليد متوارث ذي قواعد وطرق تعترف بها القيادة الفرنسية وتساعد على تنفيذها!.

خامساً: الفرنسيون والقناصل الأجانب:

لعل أغرب بل وأهم ما في الوثيقة هو ما تقوله عن تصرف الفرنسيين تجاه القناصل الأجانب وبيوتهم وممتلكاتهم، فقناصل أمريكا والدنمرك والسويد ونابلي يقررون حيادهم وحياد بلادهم في النزاع القائم بين الجزائر وفرنسا ويقوم هؤلاء بالتجمع في بيت محصن تحت حماية العلم الأميركي وقيادة القائم بأعمال القنصلية الأميركية، وتوافق الحكومة الجزائرية على ذلك وتحترم رغبة هؤلاء وتحافظ على المكان الذي اختاروه رغم كونه مركزاً استراتيجياً، ولكن ما أن يظهر الفرنسيون حتى يضعوا أيديهم على ذلك البيت المحمي، ولا تنجح مغالطات كاتب المذكرة في إخفاء حقيقة أن الفرنسيين قد استولوا بالفعل على البيت، احتلوه بجنودهم واستخدموه كنقطة مراقبة لهم، وسخروا أهله لخدمتهم وإطعامهم والترفيه عنهم، دون أن يأبهوا بأي احتجاج. بل وبينما كان هؤلاء القناصل وزوجاتهم يقدمون للضباط الخراف والمرطبات ويسهرون على راحتهم قام جنود هؤلاء الضباط باقتحام بيوت القناصل ونهبها وقتل بعض من كانوا فيها.

إن ما يبعث على الدهشة في كل هذا، هو أن فرنسا كانت قد شنت حملتها على الجزائر وقامت باحتلالها بحجة أن داي الجزائر، قد أهان قنصلها لديه، عندما قام بضربه بمنشة ذباب أو مروحة كان يحملها الداي[١٦]. وكان رد فرنسا على تلك الإهانة التي لحقت بقنصلها هو حملة عسكرية لم تنته إلا باحتلال الجزائر والواقع أن هذا التعليل لاحتلال الجزائر، يتجاوز الأجهزة الفرنسية الرسمية إلى العديد من الكتابات التاريخية الفرنسية بل والعربية، رغم اعتراض العديد من الأفراد على معقولية هذا التعليل بل وسخافته. والوثيقة التي بين أيدينا دليل جديد على صحة رأي المعترضين.

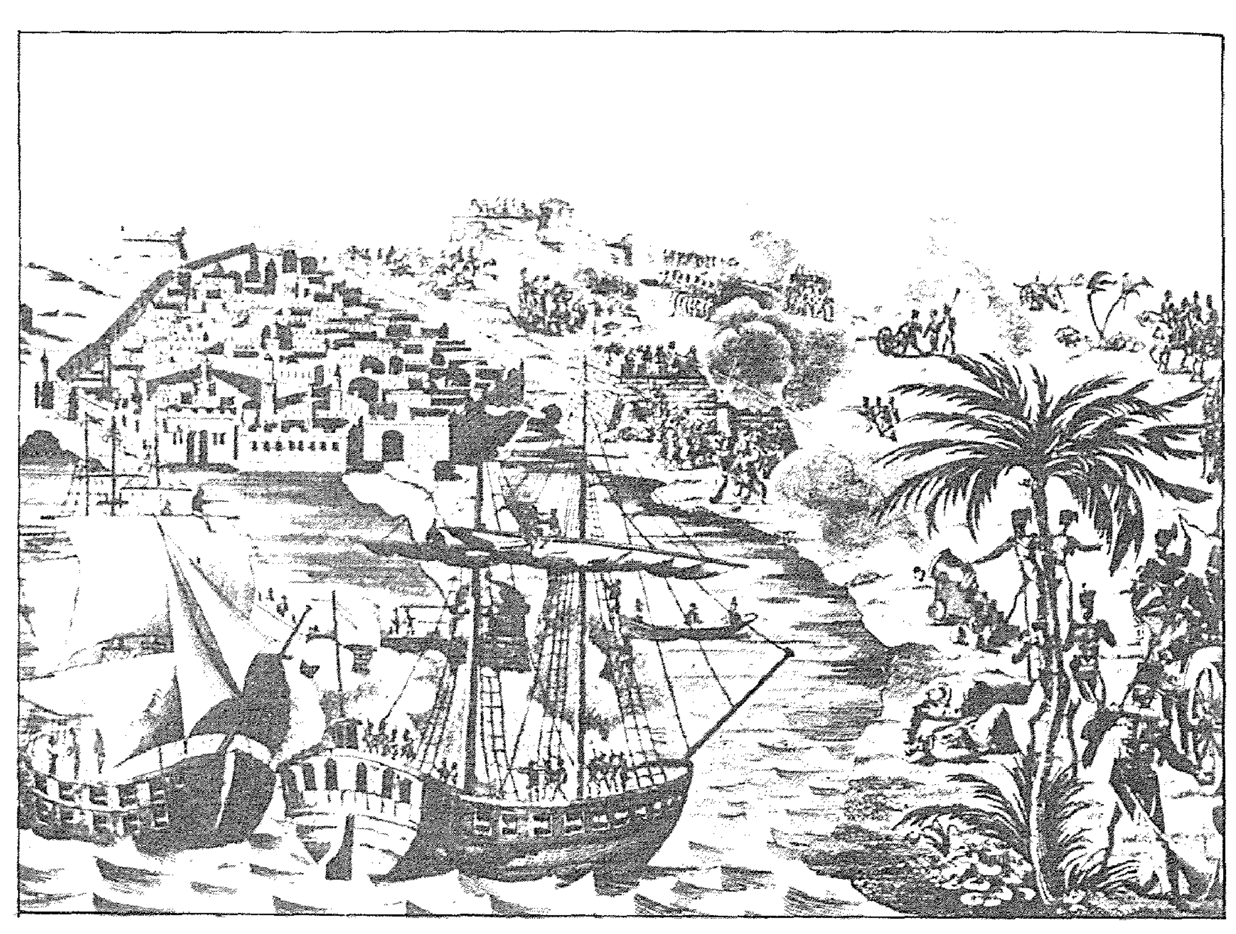
الجزائر في ١٥ يوليو ١٨٣٠

سيدي،

منذ بضعة أيام، انتهزت فرصة [سفر] غير متوقعة عن طريق جبل طارق، لأعلمك إشاعة محتملة الصحة في محتواها وظروفها، قد وصلت إلى هنا من ماهون[١٧]، مفادها أنه سيتم استبدالي عن قريب بالمواطن المحترم الكوماندربورتر. إنني لا أملك أمام هذه العدالة الصارمة إلا أن أنحني بخضوع وتواضع، يحدوني الأمل بأن سلوكي هنا لم يستحق هذه الدرجة من السخط، واعتقادي، مهما كنت قليل الأهمية في نظر سلطان بلادي وغير مستحق لتقديرها، بأن ليس هنالك من يفوقني في حبي البار لبلادي وتقديسي لتربتها، لأخلاقها، لحريتها ولقوانينها. إنني أقدم هذا الحب الجياش المتقد كضمانة على أنني، عندما تدعوني الظروف التي يرزح تحتها هذا البلد للعمل، سوف أبذل في خدمة وطني، في وضعي الحالي بعد تنحيتي من منصبي، الجهد الصادق نفسه الذي كنت أبذله قبل معرفتي بخبر تلك التنحية. ولكن يبدو أن خلع الداي[١٨] وترحيله [إلى] بلد[١٩] بعيد سوف يعطل إن لم [يلغ] تماماً[٢٠] الواجبات الأساسية التي كان منصبي مسؤولاً عنها.

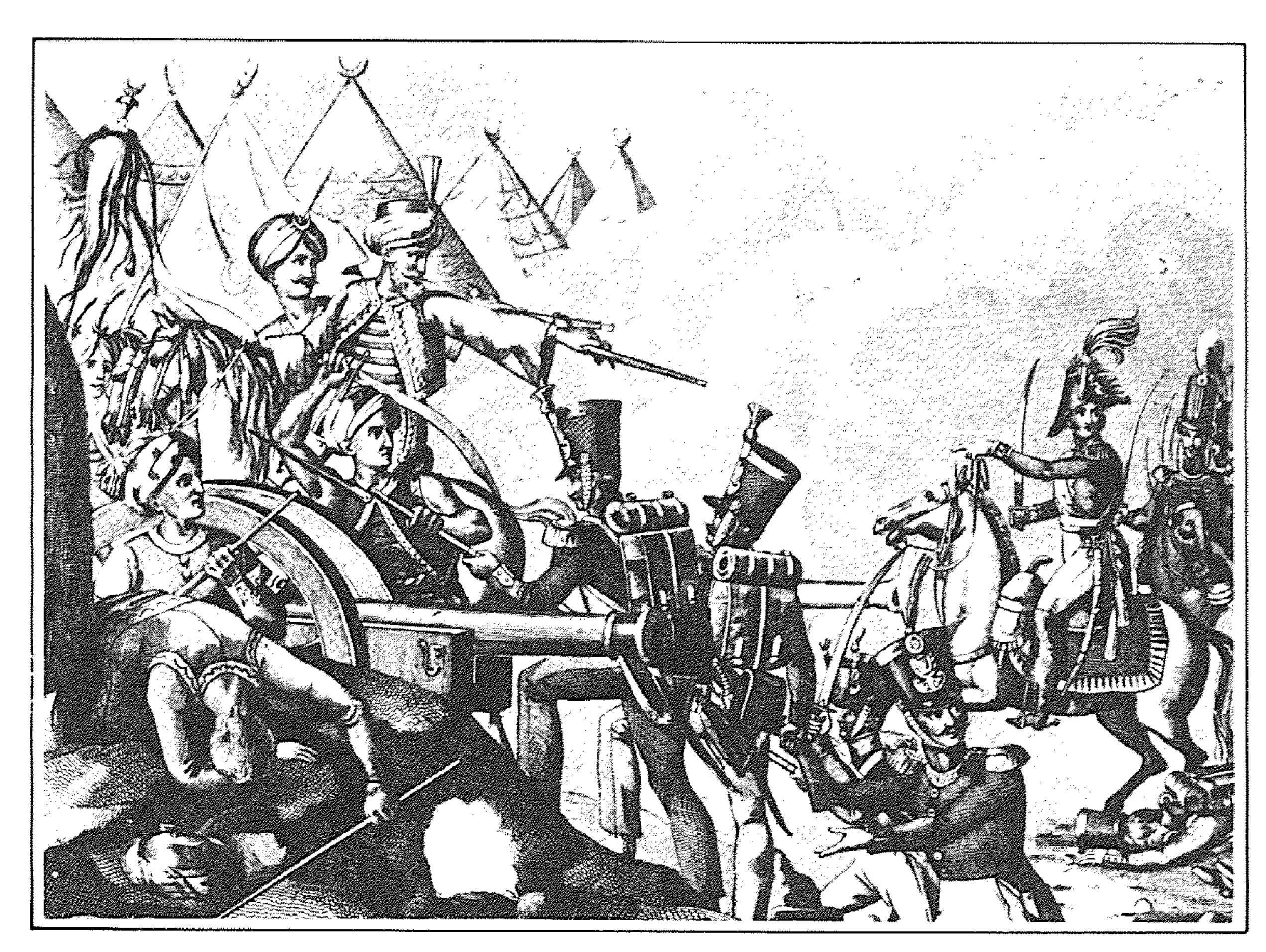
في يوم ٥ الماضي[٢١] كان لي شرف إبلاغكم بخبر سقوط هذه المدينة واحتلالها من قبل الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال بورمونت[٢٢]، وذلك بعد سلسلة من العمليات المتنوعة والناجحة والتي كانت قد بدأت بنزول ذلك الجيش في منطقة «سيدي فرج» في يوم ١٤ يونيه، وانتهت لتوها. ولو كان من ضمن واجباتي أن أصف تلك الحملة بسمة معينة لأشرت إلى أن القائد الفرنسي، على الرغم من أنه لم يضرب مثالاً لذلك المزيج من الإقدام والسرعة والابتكار الذي اعتاد على رؤيته الدارسون والممارسون لأساليب الحرب الفرنسية في الفترة الأخيرة، إلا أن قراراته، كانت على قدر كبير من الجرأة والنشاط المشوب بالحذر الذي لا يترك شيئاً لتقلبات الحظ. فكما أنه في كل مرة شن فيها الهجوم دفع بأعدائه إلى الخلف، فإنه في كل مرة توقف فيها زحفه قام بتحصين مواقعه، كما أنه لم يقم أبداً بإطالة خط عملياته من دون أن يوفر لقاعدته المزيد من الأمان. يمتد الطريق من سيدي فرج إلى مدينة الجزائر مسافة تبلغ حوالي ١٢ ميلاً، يسير خلالها بحذاء قاعدة النتوء الجبلي المنتهي عند رأس كسكين، الذي يقع إلى الغرب من المدينة بخمسة أميال، وإلى الشرق من سيدي فرج بتسعة أميال. ورغم كون هذا الطريق كثير التلال في معظم أجزائه وتغطيه الشجيرات الشوكية، وتتناثر فوقه مجاميع من أشجار الصبار والصمغ — إلا أنه لا تعوقه الغابات أو الأنهار أو الجبال مما يسمح للخيالة والمدفعية بالسير عليه بدون صعوبة كبيرة، كما انه من الممكن الإشراف عليه كله من مكان عال. ولكن على الرغم من أن الجنرال بورمونت لم يواجه إلا مقاومة غير نظامية ولا ثابتة من العرب والبربر، إلا أنه استغرق خمسة عشر يوماً للوصول إلى مرمى مدفع من القلعة التي تكوّن نقطة الدفاع الرئيسي عن مدينة الجزائر من جهة البر — وطوال تلك الفترة لم يجابهه أبداً عدداً يفوق عدد جنوده، بل كان عدد من يواجههم غالباً أدنى من عدده. يقال أن عدد جنوده البرية يبلغ ٤٥ ألف رجل إلى جانب مساندة الأسطول الذي يحمل ١٥ ألف بحار. و[لا][٢٣] اعتقد أن عدد القوات الفوضوية التي واجهته قد وصل في أي وقت من الأوقات إلى ٥٠ ألف رجل. في يوم ١٩ [يونيه ١٨٣٠] تقدم من [سيدي][٢٤] فرج في الصباح الباكر وباغت معسكر [الآغا][٢٥] في أسطى والي، على مسافة حوالي ثلاثة أميال على طريق الجزائر وقامت قواته بالقضاء على الكثيرين من الأتراك بالسلاح [الأبيض][٢٦] واجبرت الآخرين على الفرار، كما غنمت كميات من الحاجيات الثمينة والمهمات العسكرية. وفي يوم ٢٤ [يونيه ١٨٣٠] قام العدو بتجميع قواته أمام جبهته وعلى جناحيه[٢٧]، فتقدم [بورمونت] إلى الأمام مرة أخرى في حوالي الساعة الثامنة في تشكيل من ثمانية طوابير دافعاً إلى الخلف بقوات الآغا الضارية ولكن غير المنتظمة ثم قام بالاستيلاء على المعسكر الثاني لذلك القائد [الجزائري]، واحتلال سلسلة المرتفعات التي أمامه على مسافة أربعة أميال من البلد. وفي تلك المرة كما في المرات السابقة التي هجم فيها الجيش الفرنسي، فر العرب والبربر من أمامه، تاركين مدينة الجزائر وراءهم، واتجهوا إلى الشرق منها على امتداد الساحل. بعد ذلك الهجوم احتفظ [بورمونت] بهذا الموقع الجديد، وقام بتحصينه وتقوية خطوط اتصالاته مع الأسطول، كما قام أيضاً بجلب الذخائر وقطع المدفعية، واستمر على ذلك العمل حتى صباح يوم ٢٩ [يونيه ١٨٣٠]، مكتفياً بصد مناوشات [الجزائريين] والرد على قصف الآغا المدفعي. ولقد كانت المناوشات والقصف في غاية الشدة والدموية. وفي فجر ذلك اليوم وبعد أن جرح أكبر أولاده الأربعة الذين كانوا يرافقونه جرحاً قاتلاً، قام بشن هجوم نجح بعده بهزيمة أعدائه هزيمة ساحقة، وللمرة الثالثة قام هؤلاء الأعداء بالفرار بعيداً عن المدينة تاركين الدفاع عنها لتحصيناتها فقط. وعلى الرغم من أني لم أستطع مقاومة التعاطف مع الجانب المتعرض للغزو في هذه الحرب، ولم اقدر إلا ان أشفق على المقاومة الباسلة ولكن غير الفعالة التي قاوم بها هؤلاء بشجاعة وبراعة جنرالات الجيش الفرنسي وقائده، إلا اني لا اذكر أبداً أنني شعرت في حياتي بمثل ذلك الفخر والزهو بالانتصار الذي غمرني عندما وقع بصري للمرة الأولى من شرفة موقعنا، على الفرق المسيحية المنتصرة وهي تدفع أمامها حشود البرابرة، وتتوج بوجودها المرتفعات المطلة على الجزائر -بينما راياتها المألوفة تخفق بكبرياء امام الريح وأسلحتهم المنتصرة تلمع تحت شمس الصباح — كما كنت قد تشرفت بإخباركم في رسالتي المؤرختين

في ١٢ إبريل و٩ مايو، إن قناصل إسبانيا ونابلي والدنمارك والسويد مـع من تبقى من عائلاتهم في هذا البلد خلال هذه الحرب، وكافة المسيحيين مـع عدد من اليهود التابعين لهم، قد قاموا بالتجمـع في منزل كبير ومحصن، كما نظموا أنفسهم على شكل حامية تحتمي بالعلم الاميركي، وصوتوا بالإجماع على وضـع أنفسهم تحت إمرتي. ومنذ اللحظة التي قام بها خطر الغزو المنتظر باجتلاب جماعات العرب والبربر من السهول والجبال القريبة من الجزائر تلك الجماعات التي أسرف الداي والانكشارية بالاعتماد على عددها المبالـغ فيه وشجاعتها المتعصبة، تعرضت بيوت القناصل الأربعة المذكورين إلى تعديات وحوادث نهب، استحال معها السكن فيها كما أن منزلي رغم موقعه الذي جعله أقل تعرضاً للتعدي، لم يسلم بأي حال من الأحوال. لذا اضطررنا في يوم ٢٦ مايو لأن نترك منازلنا العديدة، وأن نتجه إلى القلعة التي كان الداي قد وافق على اختيارنا لها وتحضيرنا لها لكي تحمينا وتابعينا في منطقة محايدة تؤوينا حتى تمر عاصفة الحرب، ويهدأ النزاع من حولنا. وتجد طي هذه الرسالة مجموعة أوراق تحوي نسخاً من دستورنا، وأول أمر أصدرته لتنظيم الحامية، ستشرح لك طبيعة رابطتنا، وتجعلكم تقدرون الخطر الداهم الذي تشكلت حاميتنا في ظله. ولكن يسرني أن أقول أن نتيجة عملنا هذا كانت حسنة للغاية. إذ بينما نهبت بقسوة كافة البيوت التي حولنا العائدة للعرب واليهود، وأزهقت الكثير من أرواح هؤلاء حافظنا نحن على سلامتنا التامة، ومـع استثناءات بسيطة كنا دائماً في اطمئنان تام. ففي كل مرة دفـع فيها تقدم الفرنسيين بالقوات التركية إلى جوار مكاننا، كنا نخشى أن تتحول مجموعتنا المسيحية الصغيرة إلى هدف مغـر لانتقامهم وعدوانهم، وفي كل مرة تعود تلك القوات لمواجهة الفرنسيين، بدا من المحتمل أن تدفعهم ثقتهم بأنفسهم وجشعهم إلى محاولة الهجوم علينا، ولكن دفاعاتنا الجديرة بالاحترام وموقعنا الملائم، لم يقم فقط بحمايتنا من عنفهم، بل لقد سرنا أن نعلم بأننا قد تسببنا في حماية الكثير من الأسر التي كانت في جوارنا حتى قيام الفرنسيين باحتلال المنطقة. لقد حدث ذلك كما ذكرت سابقاً يوم ٢٩ [يونيه ١٨٣٠] وذلك عندما قام القائد الفرنسي بإرسال تلة تحمل تأكيدات الاحترام والمساعدة، ولكن تقترح احتلال موقعنا لاحتياجهم له كنقطة مساندة لجناحه الأيسر. ورغم قبولي بامتنان لعروضه بالمساعدة والحماية، إلا أنني شعرت أن من واجبي أن أرفض التنازل عن مكاننا له، وأن أحافظ على الموقف الحيادي الذي تلتزم به الولايات المتحدة والدول والقناصل الذين كانوا تحت علمي، تجاه فرنسا والجزائر، والموقف الودي تجاه الجزائر الذي تضفيه علينا أوراق الاعتماد الخاصة بكل منا. ولقد ذهبت إلى حد أن أطلب بألا يقوم باحتلال حتى المنطقة المحيطة بنا بقواته، وخصوصاً ألا يضـع في تلك المنطقة بطارية مدفعية، كما كان قد لـمح لذلك أحد ضباطه، حيث أن مثل ذلك العمل لا بد أن يتسبب في إطلاق النار علينا من مدفعية الداي الموجودة في الحصون وبذلك يضـع عائلاتنا التي تضم السيدات والأطفال في خطر عظيم. ولقد دعمت طلبـي بالإشارة إلى أن موقفنا المحايد قد حافظ عليه البرابرة بكل دقة، وبأني أرجو ألا تدعونا إجراءات الجنرال الفرنسي لأن نأسف على اقتراب جيش مسيحي منا. ويمكن القول أن ندائي ذلك أو فحص القائد الفرنسي الدقيق للموقـع، قد حدا به لأن يصرف النظر عن إقامة بطارية المدفعية بالقرب منا، ولكن بدا من الضرورات العسكرية أن يقوم باحتلال المرتفـع الذي تقـع عليه حاميتنا. ولقد قام بذلك العمل الجنرال أشارد مـع الفرقة التي كان يقودها، وعلى الرغم من أنني قد أبديت احتجاجي الشديد على ذلك العمل، إلا أنني لا أشك بأن تلك العملية قد أملتها أحكام الضرورة الحربية، وأشهد أنها قد تمت باعتدال وحذر. فلقد خصص الجنرال حامية من ٤٠ رجلاً لتتولى حمايتنا وعندما سمـع بأن والدي ووالد البارون الملازم ليمان كانا يعرفان بعضهما بعضاً، خلال حرب الاستقلال الأميركية، أمر ذلك الضابط بأن يتولى تلك الحامية. وعندما تمت تلك الاستعدادات وشرع الكثير من الضباط الفرنسيين من مختلف الرتب يترددون [على مكاننا] لكي يلاحظوا المكان ويمتعوا أنظارهم برؤية الأسطول والجيش والقلاع والمدينة من شرفتنا [المطلة على كل ذلك] جر علينا ذلك ما كنا نخشاه، ألا وهو انصباب قذائف القلاع التركية علينا، ولقد كادت واحدة من أولى تلك القذائف أن تقتل الجنرال أشارد نفسه. ولما لم يكن باستطاعتنا إزالة تلك القوة الفرنسية، أو رفض القيام بواجبات الضيافة تجاه ضباطها، بقيت مائدتنا وشرفتنا في ازدحام دائم، فالأولى كانت المائدة المسيحية الوحيدة داخل خطوطهم، والتالية كانت أكثر المناطق إشرافاً في المنطقة المحيطة بالجزائر. ولذا كانت النتيجة زيادة عظيمة في مصاريف مؤسستنا، وتوجه العديد من القذائف وطلقات الرصاص ضدنا. أما المصاريف فنحن على ثقة من أن حكومتنا ستعوضنا عنها، وأما القذائف فلقد أنقذنا منها موقـع القلعة الفريد بالنسبة للأرض المحيطة بها والمدافـع المهاجمة، والذي جعل من المستحيل على أي قذيفة أن ترتفـع الارتفاع الكافي لتصيب الموقـع من دون أن تعبر من فوقه. ولكن على أية حال وَضَعنا تَعَرُّضُنا [للقصف] في موقف غير سار وكانت السيدات في موقف مؤلم من يوم ٢٩ يونيه وحتى ٥ يوليو. إن من المؤسف أن ألاحظ هنا أن القوات الفرنسية قد أجرمت بارتكاب العديد من الفظائـع التي قد تلائم المتوحشين، ولكن البرابرة الذين قاوموا الفرنسيين لم يصدر منهم أبداً مثل ما صدر من هؤلاء. ففي صباح ٢٩ [يونيه] وبينما كان الضباط الفرنسيون يتناولون المرطبات التي أعددناها لهم، قامت مجموعة من جنود هؤلاء الضباط باقتحام منزل قنصل نابولي والذي كان يرفرف عليه علم تلك الدولة، وقتلوا البستاني الذي يعمل عند القنصل وكان أوروبياً، وكاتب القنصل وكان يهودياً وابنة ذلك الكاتب، ولقد حاول الجنود الفرنسيون تبرير ذلك الهجوم الوحشي بالادعاء كذباً بأن البستاني واليهودي قاما بإشهار المسدسات عليهم. ولا يستطيـع ضحايا هذه القسوة الآن تكذيب ادعاء هؤلاء الجنود. ولقد كان من الأرجـح تبرير مثل هذه



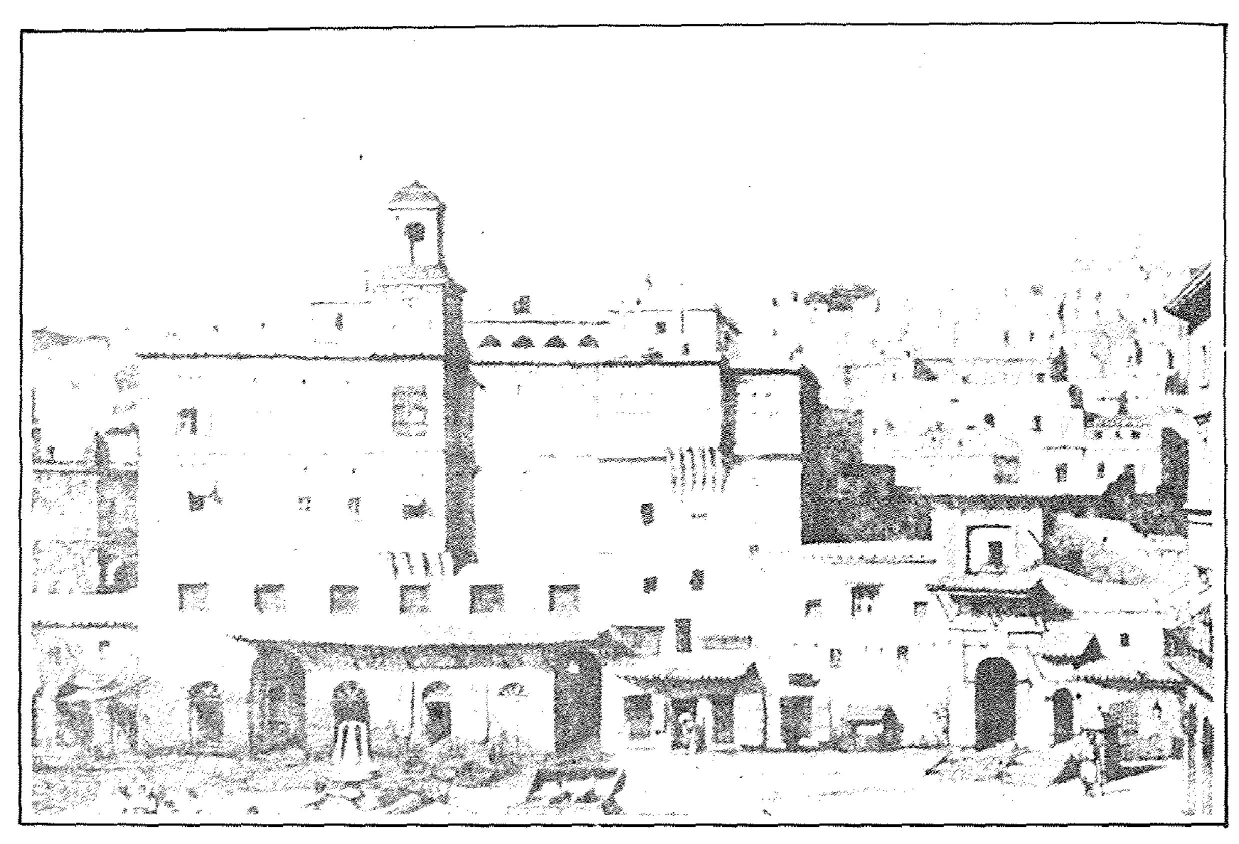
□ المدفعية الفرنسية تقصف مدينة الجزائر في ٥ تموز ١٨٣٠ قبل احتلالها...

الأعمال بدعوى أن هذه الجرائم ارتكبت في فورة من فورات الدم وهيجان الفتح، بعيد قيام الفرنسيين بإزاحة العرب من آخر موقع لهم على أرض المعركة. ولقد كان من الممكن أن أصدق ذلك التبرير، لولا أن هؤلاء الجنود قاموا فيما بعد، وعن عمد مبيت، باقتحام منزلي السفيرين السويدي والدنماركي والسطو عليهما، حيث دمروا الكثير من المقتنيات الثمينة، وفي النهاية قاموا بالسطو على منزلي أنا أيضاً حيث لم يجدوا الكثير لكي ينهبوه. ومما استطعت أن أعرفه عنهم أقول إن ميولهم للنهب والسلب تفوق بكثير ميول البرابرة، ولم يحاول أحد الحد من تلك الميول ولا بحالة واحدة من المعاقبة لقد تم ارتكاب تلك الجرائم في الفترة ٢٩ [يونيه]، و٥ يوليو، وهي فترة استغلها قائد هؤلاء الجنود في فتح الخنادق وتركيب بطاريات المدفعية قبالة حصن مولاي الحسن(٢٨)، وهي قلعة مغرقة في القدم، وبالغة القوة، تشرف من علٍ على المدينة، وتكون دفاعها الرئيسي من جهة البر ومن هذه القلعة ومن قلاع أخرى صغيرة ومن أسوار القصر، قام الأتراك بقصف متواصل بالقذائف والقنابل على الرجال الذين في الخنادق، وعلى أي مجموعة من الفرنسيين تظهر للعيان في مدى نيرانهم. ولقد تعرضت حاميتنا التي كانت محل احترامهم في البداية، لضربات متواصلة من نيرانهم كما أشرت إلى ذلك فيما مضى ـــ ولقد وجدنا أنفسنا غير قادرين على البقاء في مكاننا أو مبارحته بسلام. إذ طالما كان الفرنسيون يحيطون بنا، فإن بطاريات الأتراك ستواصل ضربنا ـــ أما لو أننا انسحبنا من منطقة جوار وحماية الفرنسيين الذين اعتبرنا الجزائريون حلفاءهم، فإن من المؤكد أن غضب العرب سينصب علينا، وإن صرنا في بيت غير محصن فلن نستطيع دفعهم عنا. لذا، قررنا البقاء بنسائنا وأطفالنا. ولحسن الحظ استطاعت مجموعتنا التي يقارب عددها المائتي شخص النجاة دون أن نخسر فرداً واحداً خلال تلك الفترة، وبسبب فقدان الاتصال بين خدمات البحرية واحتياجات الجيش بقي الضباط والجنود الموجودون حولنا بدون تموين، لذا قام هؤلاء باستهلاك جانب كبير من مخزوننا الغذائي. وأذكر في إحدى المرات أننا اضطررنا أن نعطي الجنود ١١ رأساً من الغنم. ولقد قمنا بذلك، كما قمنا بضيافة الضباط عن طيب خاطر، وبسرور شعرت به بقوة خاصة لأنني وجدت ضمن هؤلاء الضباط، الكثير من الأسماء البارزة في ثورتنا(٢٩) ـــ [مثل] دوق موبيه دي لوزيم، الكونت جرانمونت، البارون سانت سيمانز وكانسيرز الشاب، الذين يبدو أنهم ورثوا صداقة آبائهم للولايات المتحدة. إن من الممكن عزو طول المدة التي انقضت بين بداية العمل في التحصينات الفرنسية والانتهاء منها إلى فقدان فعالية الارتباط والتنسيق بين البحرية والجيش ـــ إذ لم يتم إحضار المدافع اللازمة لإنشاء تلك التحصينات من



□ معركة «أسطوالي» في ١٩ تموز ١٨٣٠ بين الجيشين العربي والفرنسي الغازي.

سيدي فرج، على بعد عشرة أميال، إلى الموقـع [المطلوب] إلا مساء يوم ٣ [يوليو ١٨٨٣] ــ ولقد تم تأمين التحصينات الفرنسية ضد المناوشة بسلسلة من المتاريس. لقد كانت معاونة البحرية في القتال في غاية الضعف والسخافة. ففي أول يوم من أيام يوليه، قام تشكيـل بحري مكون من طابورين من سفن القتال و١٥ فرقاطة وعدد من السفن الصغيرة يقودها اللواء البحري دوبيير والعميد البحري رازاميل، بالإبحار بالقرب من الشاطيء في نسيم خفيف من رأس كسكين إلى مدينة الجزائر بمواجهة سلسلة القلاع الصغيرة التي تحمي ذلك الساحل، وقام ذلك التشكيل خلال إبحاره بفتـح النار على تلك القلاع بالتوالي. ولقد كان في اعتقادنا أن ذلك القصف البحري لم يكن القصد منه إزعاج البطاريات التركية وتحويل نيرانها بعيداً عن الجيش الفرنسي الذي كانت تزعجه وحسب، بل لتدمير تلك البطاريات وكل الحصون التي كانت تحت رحمة نيران ذلك الأسطول. ولقد أعطانا موقعنا الذي يرتفـع ١٢٠٠٠ قدم [كذا][٣٠] عن ذلك الجزء من الشاطيء مكاناً نشرف منه عن قرب، نحن والضباط الفرنسيون على ميدان العمليات كله. وعلى الرغم من أن السفن مرت في تتابـع، يشاهد كل منها أثر ضربات السفينة التي قبلها، ورغم أن كل واحدة من تلك السفن، قامت بإطلاق متزامن لمجموع مدافعها الجانبية أكثر من مرة، فإن أياً من تلك الطلقات بالكاد أفلـح في الوصول إلى الشاطيء أو إلى اثنتين أو ثلاث من القلاع التي لم يصبها أي أذى، بل إن ذلك القصف بدلاً من أن يسكت حتى ولو أصغر واحدة من تلك القلاع، لم يمنـع اثنتين منها، عندما انتبه رجالهما إلى العدد الغفير من الضباط الذين تجمعوا في منزلنا، من تجديد إطلاق النار على ذلك المنزل وسط القصف الفرنسي البحري. ولقد قام بعض هؤلاء الضباط من ذوي الرتب العالية بالسخرية من ذلك العرض، وانقبض صدر بعض آخر، بينما حاول آخرون تبرير عدم فعالية الأسطول بالادعاء بأن الهدف من تلك العملية لم يكن سوى محاولة سبر عمق الماء في تلك المنطقة، وقياس أبعاد القلاع استعداداً لهجوم قوي وفعال يأتي فيما بعد. ولما استمر الجيش في المعاناة الشديدة من القصف المدفعي التركي المتصل على فرق العمل والحراس، قام الأسطول في يوم ٣ يوليو بالاقتراب مرة أخرى من النقطة نفسها، بالترتيب نفسه ولكن بقوة أكبر، وكان لنا نفس ميزة مراقبة تلك العملية، كما كنا قد راقبنا سابقتها، وكان معنا هذه المرة عدد أكبر من الضباط الفرنسيين. وكانت القوة البحرية هذه المرة مكونة من سبعة طوابير من سفن القتال، و ١٥ فرقاطة، وست سفن قنابـل، وبعض السفن الصغيرة ومـركبين بخـاريين، قـام أحدهمـا أحياناً بإطلاق النار. كان على رأس القوة فرقاطة قامت بتأدية واجبها بشجاعة ودقة. قـامت هذه الفـرقاطة



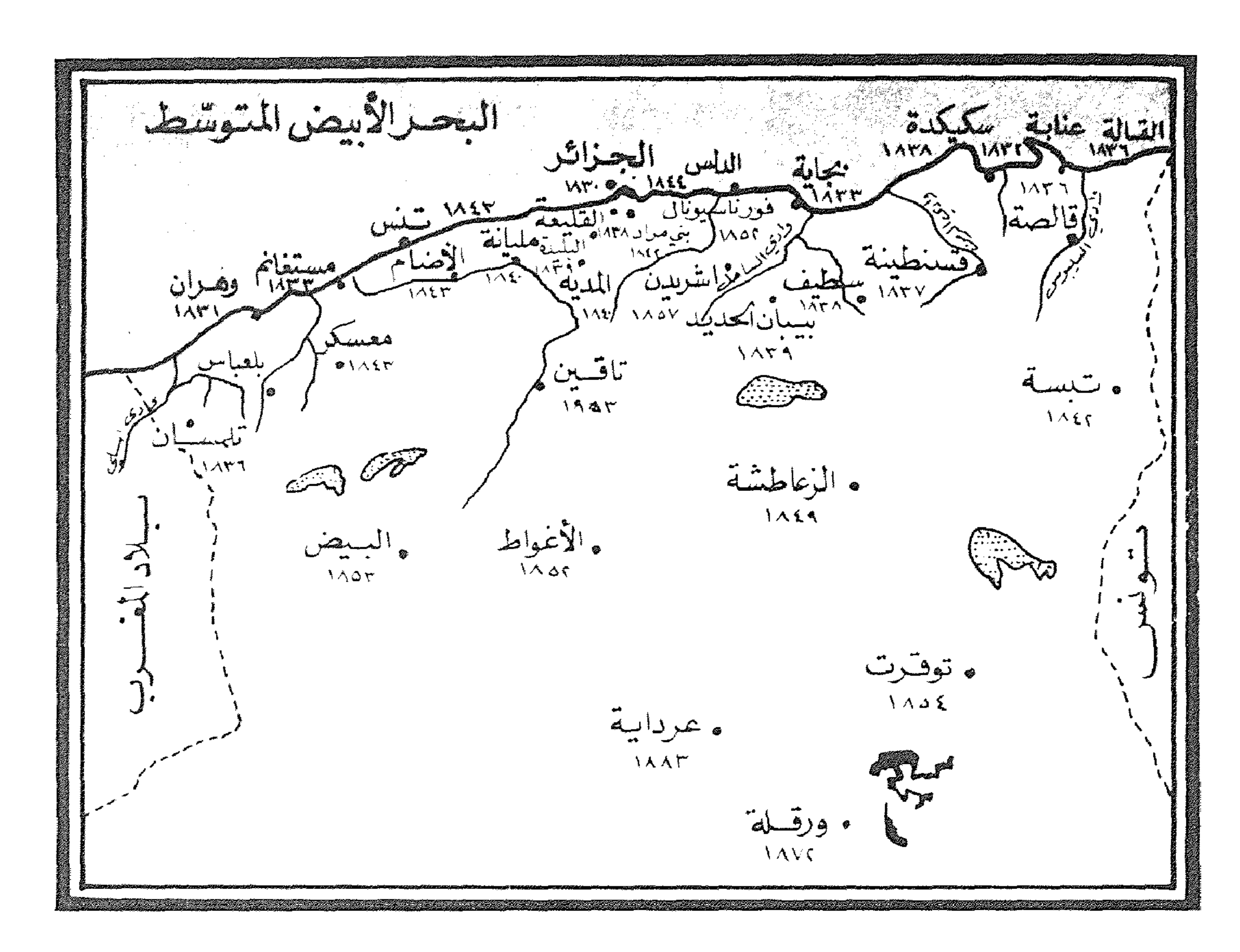
□ قصر «الجنينة» مقر الإدارة المركزية العثمانية قبل أن يحرقه الفرنسيون.

بالمرور أمام كل البطاريات من رأس كسكين، حتى أكثر حصون المدينة مناعة ــ مبقية المسافة بينها وبين الشاطىء في حدود الإطلاق المباشر ومستمرة في القصف من المدافع الجانبية في تتابع سريع مستمر. يتبع تلك الفرقاطة سفينة قتال تحمل علم الأميرال، ولكنها بقيت على مسافة كبيرة [من الشاطىء] وكانت قليلة الفاعلية، وكانت كل سفينة أخرى أكثر ابتعاداً عن الشاطىء من سابقتها وأقل اقتراباً من بطاريات المدينة القوية، لذا بدلاً من أن يتوجه ثقل تلك النار الكثيفة إلى المدينة وبطارياتها القوية المدافعة عن الميناء، تم صرف تلك النيران على القلاع قليلة الأهمية التي كانت تحمي مدخل المدينة من الغرب، وحتى هذه لم ينجح القصف في إسكات أي منها. إنني لم أشاهد هذا القصف المدفعي من قبل، ولم أكن أتصور أن مثل هذه النار الكثيفة قد تكون غير مؤذية على الإطلاق، فنحن لم نشاهدها تقتل فرداً واحداً، وحتى اليوم لم أسمع أحداً يقول إنها قد قامت بذلك. إننا لو حسبنا أن كل نوبة إطلاق من ذلك الأسطول قد قذفت سبعمائة إطلاقه، وإذا كان معدل إطلاق كل مدفع في السفينة خلال تلك العملية كان ثلاث مرات، إذاً يمكننا القول إن ٢١٠٠ طلقة قد تم إطلاقها من قبل تلك القوة البحرية دون أن تنتج أي أثر يذكر. وبالمثل لم يتعرض الأسطول لأي سوء، ما عدا انفجار أحد المدافع على سطح سفينة الأميرال ــ والتي بما أن أي مذبحة لم تحدث بسبب المسافة البعيدة عن الشاطىء التي بقيت عليها تلك السفن تسبب [ذلك الحادث] في إحداث هيجان عظيم فوق ظهر المركب. لقد تسبب هذا العرض السيئ بإصابة ضباط الجيش الذين لم يخفوا خيبة أملهم وحزنهم بالإحباط الشديد ــ لقد كان ذلك الفشل دليلاً قوياً ضمن أدلة كثيرة، نجدها في تاريخ فرنسا، على عدم قدرة هذه الأمة الحربية على القيام بأي إنجاز عظيم في البحر. في اليوم التالي وهو الذي صادف عيد استقلال بلادنا[٣١] بدأ الفرنسيون ــ بعمليات من نوع آخر وأكثر توفيقاً. إذ كما ذكرت في رسالتي المؤرخة يوم ٥ الماضي، قام الجنرال لاهيت بفتح نيران البطارية، المركبة من ٢٦ مدفعاً طويلاً ومدفعي هاون. على القلعة المحصنة المشرفة على مداخل المدينة، وعلى المدينة نفسها ولقد قام الجيش بأداء ذلك العمل على أحسن وجه. كانت البطاريات على بعد يتراوح بين نصف ميل وميل من القلعة بسبب خداع البصر الناتج عن عدم وجود الأشجار في تلك المنطقة، وصفاء الجو، سقطت القذائف الأولى دون مرماها المرغوب، ولكن بعد عدة جولات تجريبية أدرك الرماة المسافة المطلوبة وبدأوا في إطلاق النار بدقة تصويب تدعو إلى الإعجاب. بعد أربع ساعات من القصف تم إسكات مصادر النيران في القلعة، على الرغم من أن كبير الوزراء الجزائريين، نفسه كان يقود المدافعين عنها معاوناً بنفسه على تشغيل المدافع وموزعاً حفنات الذهب على رجاله لكي يشتري خدماتهم، وفي النهاية أشعل النار في مخزن بارود القلعة ناسفاً إياها. وكانت قوة الانفجار الناتجة عن ذلك على درجة من العنف، تسببت في تشقيق حيطان منازل تبعد مسافة ميلين



□ المدفعية العربية في الدفاع عن قسنطينة.

من القلعة. وبعد وقت قصير من ذلك، طلب الداي من القنصل البريطاني التوسط، ووافق هذا على ذلك وقام بالوساطة، معرضاً نفسه للعديد من المخاطر، ونجـح في تجنيب المدينة فضائـح اقتحامها عنوة. وأمن وسلامة الداي الشخصية ورعاياه والحفاظ على أشخاصهم وممتلكاتهم. وفي اليوم التالي وفي الساعة الواحدة استولت القوات الفرنسية على القصر والأماكن الأخرى المحصنة في المدينة وضواحيها. وهكذا انتهت عمليات القائد الفرنسي الحربية. ولم تكن عملياته الدبلوماسية أقل لفتاً للنظر. وقد بدأت هذه العمليات بعزل الداي، وإعلان انتهاء السلطة التركية في إيالة الجزائر. وخلال الفترة اللاحقة قام بإرسال الداي وزوجي ابنتيه (أغا الأنكشارية ووزير البحرية) مـع عائلاتهم، وثروة من الجواهر والذهب، تقدر قيمتها بمليوني دولار على ظهر سفينة إلى ماهون ومن هنالك يقال إنهم سوف يتجهون إما إلى نابلي أو ليفورن أو مالطا، ولقد كانت هذه الأماكن الثلاثة تتقاسم تفضيل الداي عندما كان هنا. ولقد قام الجنرال بورمونت كذلك بترحيل كل الأتراك غير المتزوجين الذين وجدهم هنا، ويقدر عددهم بألف ومائتي شخص إلى أزمير أما المتزوجون الذين فضلوا البقاء هنا فقد قام بتجريدهم من السلاح. ويقال إنه ينوي هدم كل الحصون التي هنا وإرسال مدافعها إلى فرنسا. ولقد قام بتشكيل مجلس تنفيذي من حضر مدينة الجزائر، لكي يعاونوه على حكم المناطق التي استولى عليها، كما قام بتعيين عدد من الضباط الجزائريين الذين منحهم ألقاباً وواجبات مألوفة لدى السكان، وجعل هؤلاء الضباط على اتصال مـع السلطات الفرنسية التي وجدها ضرورية لضبط المدينة، كما قام بإنقاذ كل الأسرى الفرنسيين الذين وجدهم هنا، ويقدر عددهم بمائتي رجل، وقام بإعادتهم إلى أمن أوطانهم، وقام أيضاً بالاستيلاء على خزينة الجزائر العامة، الذائعة الصيت، والحاوية على مقدار من الذهب والفضة والجواهر يقدر العارفون قيمته بمبلـغ يتراوح بين مائة ومائة وخمسين مليون دولار ــ أكثر بكثير من التكلفة المحتملة لعملية الغزو. إلى تلك الخزينة يجب أيضاً إضافة قيمة [ما تم الاستيلاء عليه من] المؤن والأعتدة الحربية ــ الحاوية على : ٢٠٠٠ قطعة مدفـع منها ١٠٠٠ مدفـع نحاسي وكمية من أخشاب بناء السفن وفرقاطة تحت الإنشاء وعدة سفن أخرى. لقد علمنا أن الجنرال [بورمونت] قد كوفىء على نجاحه الكبير هذا باعطائه رتبة ماريشال فرنسا. ولكن على أية حال، إن أثر انتصاره لم يتعد مرمى مدافعه ــ فالعرب المسيطرون على السهول، والبربر الذين يسكنون الجبال، لا يعترفون بسلطته ولا يخضعون لها، وعلى الرغم من كونه قد أنهى الوجود الفعلي للجزائر كدولة قرصنة، إلا أن على المرء أن ينتظر ليرى ما إذا كان باستطاعته أن يقيد القبائل والأمم الوحشية التي كانت تعترف بسيطرة الدولة الجزائرية



□ تواريخ احتلال فرنسا لمختلف مدن الجزائر.

بسبب نفوذ الديانة المشتركة وسلطان الفتح القديم. وللقيام بهذا الغرض يقوم الجنرال الآن بإرسال قوة بحرية من ٣٠٠٠ رجل وسفينتي قتال وخمس فرقاطات إلى عنابة ميناء بيلك قسنطينة الواقع على بعد ٢٨٠ ميلاً إلى الشرق من هنا، والذي تحميه الآن حامية تركية صغيرة مما يجعل الاستيلاء عليه أمراً سهلاً. ولكن هذا النجاح، على العكس من احتلال مدينة الجزائر سوف يكون بدون شك ذا تأثير محلي ــ كما سيكون الحال كذلك بالنسبة لوهران التي يقال إنه يفكر بالاستيلاء عليها ــ لذا فإن القوة الفرنسية بعد أن تتوطد تماماً في هذه الأماكن الثلاثة لن تبسط نفوذها إلا على جزء بسيط من أرض وسكان شمال افريقيا. لقد بدا بوضوح، من قبل أن يصلني خبر رفض تعييني، ان واجبات منصبي الأساسية، قد ألغاها سقوط الحكومة التي كنت مفوضاً لديها. فالمشاغل الدبلوماسية في هذا المكان سوف تنتقل إلى سفيرنا في باريس طالما احتفظ الفرنسيون بهذا البلد، وأي سلطة ستبقى لمكتبي هذا لن تتعدى سلطة وكيل تجاري عادي ــ إذ كما أن إشراف هذه القنصلية على غيرها من القنصليات الأميركية في شمال أفريقيا، كان عائداً لتفوق أهمية هذه الأيالة على غيرها من دول افريقيا الشمالية، فإن مسؤولية الإشراف هذه ستزول، بالضرورة، مع زوال هذا التفوق. وفي تعميم بعث به القائد الفرنسي مؤخراً إلى كافة القناصل المعتمدين هنا، أوحى ذلك القائد، الذي لم يحدد ذلك التعميم فترة أو طبيعة سلطته الخاصة، بأنه يعتبر واجبات القناصل في المستقبل قاصرة على الشؤون التجارية. وتجدون طي هذا الكتاب نسخة من ذلك التعميم الذي سوف تلاحظون التضارب في دلالته. إذ إن إعادة فتح القنصلية الفرنسية هنا قد يعطي الانطباع بأن هذا البلد على وشك استعادة استقلاله من فرنسا، بينما القول بأن على وكلاء الدول المسيحية الأخرى تسيير الأمور الخاصة بأممهم عن طريق القنصل الفرنسي يجعله موظفاً في حكومة هذا البلد، يتداول الاقتراحات ويناقش مصالح الدول العائدة لعلاقاتها مع الجزائر. وباختصار بينما جزء من المذكرة يعتبر المسيوديفال قنصلاً لفرنسا لدى حكومة الجزائر، جزء آخر يعتبره وزيراً للشؤون الخارجية في هذه الحكومة. ولاعتقادي بأن من الأفضل ترك توضيح هذا التناقض للأحداث اللاحقة، أو لاختيار من سوف يخلفني في منصبي هذا، فإنني لم أرد على هذه المذكرة، بل قمت بزيارة قنصل فرنسا لغرض إظهار اعترافي الرسمي بصفته الوظيفية. كما أنني قد قمت كذلك بزيارة مماثلة للقائد الفرنسي، ولكني على العكس من زملائي القناصل الآخرين،

لم أقم بتلك الزيارة، إلا بعد أن تم عزل الداي. حينذاك شعرت بأن من الملائم للطبيعة الحرة والشهمة للولايات المتحدة أن أقوم أولاً بزيارة الأمير المخلوع. قبل أن أقوم بزيارة الجنرال المنتصر، وأن أؤدي للداي وهو في حالة انحسار سعده، فروض الاحترام نفسها التي كنت أؤديها له عندما كان في عزه وسلطانه. ولقد أثار تصرفي هذا في نفس الداي عاطفة جياشة لم يستطع إخفاءها وهو الرجل المعروف بالصلابة والوقار.

إنني لا يمكن أن أعرف ما ينوي الفرنسيون القيام به حيال درجة الإخضاع التي سيعرضون لها هذا البلد، وبما لا بد وأنكم قد تعرفتم على هذه النوايا عن طريق السيد رايفز فإنني لا أريد أن أثقل عليكم بتخرصاتي أكثر من أن أقول إنه يبدو أن من المحتمل أن الفرنسيين سيقيمون حكومة عربية خاضعة لفرنسا ومرتبطة بها. إن كنت قد أثقلت عليكم ببعض التفاصيل في هذا الكتاب. فذلك لأني لم أستطع أن أنتزع من نفسي الاهتمام العميق بالأحداث التي رافقت الصراع الأخير والدمار النهائي لهذه الحكومة، والتي خلال حياتها التي تميزت بالكثير من الجرائم والحماقات، قد مارست خلال أربعة قرون، مقداراً من النفوذ ليس بالضئيل على شؤون العالم، وعلى الرغم من التأثير السيئ لسمعتها الرديئة إلا أنها كانت منذ سنوات خلت قد بدأت بتسيير أمورها بإنصاف وحسن نية؛ وقد يكون الشعور نفسه لديكم، دافعاً لكم لكي تغفروا لي طول هذه الرسالة وتتسلموها بصبر وتتقبلوا معها مجدداً تأكيد احتراماتي وتقديري الذي لي الشرف أن أحييكم به. ●

الحــواشي

(١) انظر على سبيل المثال الكتاب الذي كتبه أحد ضباط أركان قائد حملة الجنرال بورمونت.
Edouard d'Ault-Dumesnil, *De l'expédition d'Afrique en 1830* (Paris, 1832).

وكتاب مساعد الجنرال بيرتيزن أول حاكم عسكري للجزائر بعد الاحتلال الفرنسي.
Barchou de Penhoen, *Mémoires d'un officier d'état-Major. Expédition d'Afrique* (Paris, 1935).

(٢) هنالك مسح جيد لهذه الوثائق في:
G. Esquer, *Les Commencements d'un Empire. La Prise d'Alger* (1830) (Paris, 1929).

(٣) قد يكون أفضل ما كتب في هذا المجال هو كتاب Esquer المشار إليه أعلاه وكتاب:
Paul Azan, *L'exédition d'Alger* 1930).

(٤) أرجمنت كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي (تونس، ١٩٧٠).

(٥) نشر النص التركي وترجمة فرنسية لكتاب أحمد افندي في:
Ottocar de Schlecta «la Prise d'Alger par an Algérien» *Journal Asiatique* no. 11, September-October 1862, pp. 319-340.

وتوجد ترجمة عربية مشوهة ومبتورة للنص التركي في: أحمد الجزائري، كيف دخل الفرنسيون الجزائر، وصف شاهد عيان وضعه أحمد الجزائري، نشره وقدم له صلاح الدين المنجد (بيروت ١٩٦٢).

(٦) si Hamdan ben Othman Khoja *Aperçu historique et Statistique sur la régence d'Alger, intitulé en arabe (Le Miroire), par Sidi Hamdan ben Othman Khoja fils de l'ancien secretaire d'état (Maktabdji) de la régence d'Alger, traduit de l'arabe par H.D. Oriental (Paris, 1833).*

وللكتاب ترجمة عربية:
حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، المرآة لمحة تاريخية وإحصائية على أيالة الجزائر، عرّبه وقدم له وعلق عليه وفهرسه محمد بن عبد الكريم (بيروت، ١٩٧٣).

(٧) نشر النص الفرنسي لمذكرات أحمد باي في:
M. *Émerit*. «Les mémoires d'Ahmed, dernier bey de constantine, «*Revue Africaine* (1949): pp. 65-125.

ولقد ترجم تلك المذكرات ونشرها: محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجه وبو ضربة (الجزائر، ١٩٨١)، ص ٩ ــ ١٠٢.

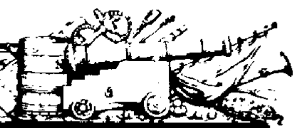
(٨) يوجد قائمة مفصلة لقوات الحملة الفرنسية وتوزيعها وتجهيزاتها وأسماء ضباطها والسفن التي استخدمت في نقل القوات مستقاة من ملفات وزارة الدفاع والبحرية الفرنسيتين في:
G. Esquer, *Les Commencements*, pp. 447-505.

(٩) انظر على سبيل المثال:
Ch-A. Julien, *Histoire de l'Algérie contemporaine tome 1 la conquête et les debuts de la colonisation (1827-1871) (Paris, 1979), pp. 51-52.*

(١٠) عن حملة اللورد اكسموث على الجزائر انظر:
Sir Godfrey *Fisher, Barbary Legend: War, Trade, and Piracy in North Africa 1415-1830* (London-1957).

(١١) انظر عثمان بن حمدان خوجه، المرآة، ص ١٥٧ ــ ١٦٠؛ ومحمد العربي الزبيري، مذكرات، ص ١١.
(١٢) انظر على سبيل المثال المقال الذي نشرته جريدة «Semaphore de Marseille» بتاريخ ١٠ يوليه ١٨٣٠ أي بعد خمسة أيام من احتلال مدينة الجزائر والذي يقول فيه كاتبه «لقد احتلت جيوشنا مدينة الجزائر... الجزائر ووهران وقسنطينة هي اليوم (مدن) فرنسية والويل لمن يحاول مسهن».
(١٣) «Ancient Conquest».
(١٤) الاستثناء الوحيد الملفت للنظر في هذا المجال هو المؤرخ الفرنسي بيلسير دي رينو. انظر:
Pellissier de Rynaud, *Annales algeriennes* (Paris, 1836-1839) 3 Vols. Vol. 1. p. 64.
(١٥) يسمى أسلوب التموين هذا «Foraging» انظر:
G.E. Rothenberg, *The Art of Warface in the Age of Napoleon* (Bloomington, 1978), pp. 84-85, 129-130.
(١٦) حول هذا الموضوع انظر:
A. Aulard, «L'insulte faite au consul de France par le dey d'Alger en 1827», *Revolution Française 1923 vol. LXXVI, pp. 160-164.*
(١٧) ماهون مدينة صغيرة في جزيرة منوركا من جزر البليار الإسبانية، كان بها قنصل دائم للولايات المتحدة الأميركية ومركز لبحرية تلك الدولة. وكان لتلك القنصلية اهمية كبيرة إذ يعتبر القنصل الذي بها كبيراً لممثلي بلاده في منطقة البحر المتوسط.
(١٨) المقصود هنا هو الداي حسين الذي حكم الجزائر بعد وفاة الداي علي خوجة سنة ١٨١٨ وحتى احتلال الفرنسيين للجزائر. ولد الداي حسين ببلدة صغيرة في الأناضول لوالد كان يعمل مدفعياً، والتحق هو أيضاً بسلاح المدفعية العثماني وعمل فترة في اسطنبول، ثم انضم لأوجاق الجزائر، كما عمل بالتجارة في الجزائر وكون لنفسه ثروة. عرف عنه العدل والحزم والحنكة السياسية.
(١٩) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.
(٢٠) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.
(٢١) أي في يوم ١٨٣٠/٧/٥ والرسالة المذكورة موجودة في:
General Records of the U.S. Government. Departement of state, R.G. 59, Consular Dispatches From Algiers.
(٢٢) هو الكونت Louis-August Bourmont عسكري من عائلة أرستوقراطية ولد في سنة ١٧٧٣ وانضم للجيش الفرنسي قبيل ثورة ١٧٨٩ وانضم فيما بعد للقوات الملكية المعارضة للثورة، وبقي خارج فرنسا حتى سنة ١٨٠٤، حيث انضم لقوات نابليون وأخلص في خدمته وترقى في سلك ضباطه حتى حصل على رتبة جنرال، ولقد هجره في معركة واترلو وانضم إلى القوات البروسية. وعند عودة الملكية لفرنسا عاد إلى الجيش الفرنسي وحصل على منصب وزير الحربية في وزارة بولينياك. ولقد كان في ذلك المنصب عندما تم تعيينه قائداً للحملة على الجزائر. وتقديراً لجهوده في تلك الحملة تمت ترقيته إلى رتبة ماريشال فرنسا.
(٢٣) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.
(٢٤) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.
(٢٥) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.
(٢٦) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.
(٢٧) المقصود بالعدو هنا هو القوات الجزائرية والجبهة والجناحين هي جبهة وجناحي الجيش الفرنسي المتقدم.
(٢٨) وتسمى أيضاً حصن أو قلعة السلطان قلاصي أو قلعة الامبراطور نسبة للامبراطور شارل الخامس من آل هابسبرغ الذي تحصن فيها أبان حملته الفاشلة على الجزائر في خريف سنة ١٥٤١.
(٢٩) يقصد حرب الاستقلال الأميركية ١٧٧٦ ــ ١٧٨٣ والتي ساعدت فيها فرنسا المستعمرات الأميركية على نيل استقلالها من بريطانيا.
(٣٠) إن أعلى نقطة في المنطقة المحيطة بمدينة الجزائر هي قمة بوزريعة بالأعراف الشرقية لما يسمى بكتلة الساحل. ويبلغ ارتفاعها ٤٠٧ متر أي الف وأربعمئة قدم تقريباً. لذا لا يعقل أن يكون ارتفاع مكان الحامية اثني عشر ألف قدم، بل الأرجح أن يكون الكاتب قد قصد الف ومائتي قدم.
(٣١) يقصد بالطبع عيد الاستقلال الأميركي الذي يقع في الرابع من شهر يوليه.





معركة بير السبع ١٩٤٨

قسم التوثيق والأبحاث

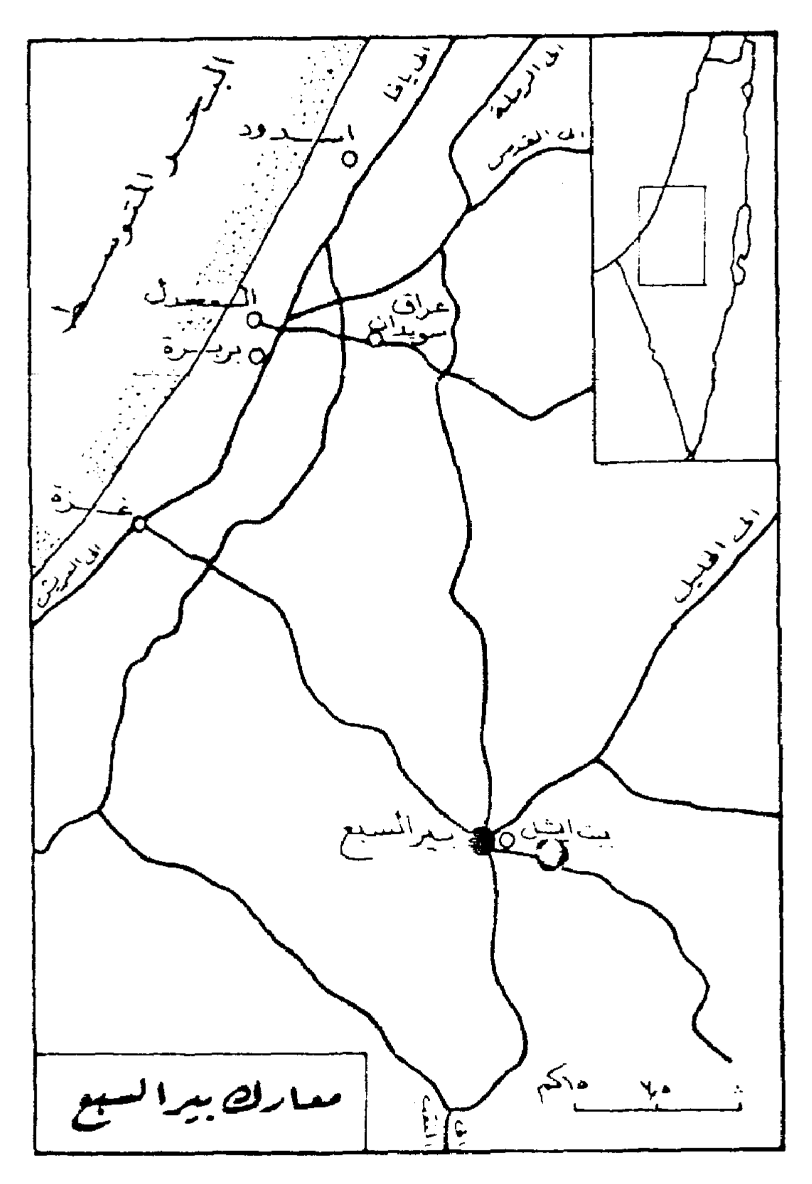
عندما أعلن الانكليز عزمهم على الانسحاب من فلسطين في منتصف أيار ١٩٤٨ تشكلت في بير السبع حامية للدفاع عنها مؤلفة من أفراد الشرطة المحلية والهجّانة (نحو ٦٠ رجلاً) وعدد من المناضلين والشباب المتطوعين من أبناء المدينة من البدو. وتولى قيادة هؤلاء جميعاً عبد الله أبو ستة. وكان في حوزة هذه الحامية ٢٠٠ بندقية، و٤ أجهزة لاسلكية، و١٤ هاتفاً ميدانياً، وبعض الأسلحة الاوتوماتيكية الخفيفة، وعدد من الألغام، وبضع مئات من القنابل اليدوية. وقد استطاع مناضلو المدينة في حدود إمكاناتهم أن يقوموا بنشاط قتالي جيد، فكانوا يعترضون قوافل السيارات الصهيونية المحروسة، ويتصدون لجماعات الصهيونيين المسلحين، بل إنهم بعد مهاجمة قافلة صهيونية متجهة إلى مستعمرة «بيت ايشل» قاموا بمحاصرة المستعمرة نفسها.

لجأ الصهيونيون فور انسحاب القوات البريطانية من منطقة بير السبع في ١٤/٥/١٩٤٨ إلى بسط سيطرتهم على المناطق والطرق الهامة من الناحية العسكرية. وقام العرب بالمقابل بدعم حامية المدينة بعدد من المتطوعين المصريين والليبيين (٥٠ — ٨٠ متطوعاً بينهم ١٢ ضابطاً). وفي ١٨/٥/١٩٤٨ دخلت قطاع بير السبع كتيبة مشاة مصرية بقيادة المقدم أحمد عبد العزيز. لكن لم يجر تعاون أو تنسيق بين هذه القوة وحامية المدينة. ولم تلبث القيادة العامة المصرية أن سحبت معظم القوة المصرية وبعض الأسلحة معتذرة بأن الوضع العسكري العام يتطلب ذلك. وقد أصبح الدفاع عن المدينة بهذا هزيلاً جداً، إذ لم يبق فيها سوى مدفعين من عيار ٦ أرطال، ومدفع واحد من عيار ٣ بوصات، وبعض المدافع من عيار بوصتين. إلى جانب ذلك أخطأ المدافعون حين حفروا الخنادق قريباً من الأبنية وتركوا المناطق الخالية المترامية الأطراف التي تحيط بالمدينة.

بدأت معارك النقب في ١٤/١٠/١٩٤٨، واحتل الجيش الإسرائيلي أسدود والمجدل وعراق سويدان وبربرة وتوقف على أبواب غزة. وفي ١٨/١٠/١٩٤٨ شنّ هجومه على بير السبع، فطلب قائد حاميتها النجدة السريعة من القيادة المصرية فلم تنجده، بل طلبت منه أن يرسل إليها بعض الأسلحة التي ما زالت تحت تصرفه لحاجتها إليها، وفي الوقت الذي لم يزد عدد أفراد حامية بير السبع عن ٢١٦ مقاتلاً من مناضلي المدينة أو المتطوعين وممن تبقّى من القوة المصرية بأسلحتهم القليلة وذخيرتهم المحدودة كان الجيش الإسرائيلي يملك الطائرات ويهاجم بخمسة آلاف مقاتل مزوّدين بالعربات المصفحة والمدافع الثقيلة والأسلحة المتنوعة.

بدأت معركة المدينة بقصف جوي دام من ١٠/١٨ إلى ليلة ٢١/١٠/١٩٤٨ دون أن يكون لدى المدافعين عن المدينة مدافع مضادة للطائرات. وقد نجم عن ذلك تدمير عشرة منازل وقتل سبعة أشخاص وإحداث ذعر في المدينة.

في الساعة الثامنة من مساء يوم ٢٠/١٠/١٩٤٨ مهّدت المدفعية للهجوم البري، ثم انطلقت طلائع القوات الإسرائيلية المهاجمة، وتبعتها القوات المحمولة لتطبق على المدينة من الشمال والشمال الغربي، وتندفع إلى داخلها في الساعة الواحدة والنصف من اليوم التالي (٢١/١٠/١٩٤٨). وأخذت هذه القوات المهاجمة

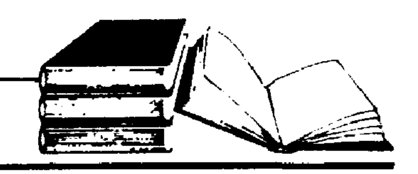


تحتل أحياء المدينة وتتنقل من شارع إلى آخر إلى أن اصطدمت صباح ١٠/٢١ بمن تبقّى من أفراد الحامية العربية في مركز الشرطة. وقد استبسل هؤلاء المدافعون الذين لم يتجاوز عددهم ٥٣ مقاتلاً مصرياً وسودانياً وفلسطينياً، ورفضوا الاستسلام على الرغم من موقفهم العسكري الضعيف. وقد دار قتال ضار بينهم وبين القوات الإسرائيلية المهاجمة، وأصيب خزان الماء في المركز بقذيفة مباشرة فانهار وتدفقت مياهه على المدافعين، فانتقلوا إلى أسفل البناء يقاتلون إلى أن انتهت مقاومتهم فاحتل الإسرائيليون المركز في الساعة التاسعة إلا ربعاً من صباح ١٩٤٨/١٠/٢١، وبذلك تم احتلال مدينة بير السبع كلها.

المراجع:

- عارف العارف: النكبة، ج ٣، بيروت ١٩٥٦.
- حسين أبو النمل: قطاع غزة ١٩٣٨ ـ ١٩٦٧: تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية، بيروت ١٩٧٩.
- عبد الله التل: كارثة فلسطين، القاهرة ١٩٥٩.
- محمد فيصل عبد المنعم: فلسطين والغزو الصهيوني، القاهرة ١٩٧٠.

□ الموسوعة الفلسطينية، المجلد الأول ـ ط ١، ١٩٨٤.



التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط

من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي

تأليف : د. علي محمود فهمي

ترجمة : د. قاسم عبده قاسم

عرض: ريان/محمد فرغلي

يحوي هذا الكتاب دراسات في التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط منذ القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع أي من السابع حتى العاشر الميلادي ــ وكما ورد في مقدمة المؤلف أن لا توجد دراسة جادة ومفصلة عن الموضوع، ويرجع هذا إلى حد كبير إلى حقيقة أن المادة المتعلقة بهذا الجانب الخاص من جوانب السيادة الإسلامية مبعثرة على نطاق واسع للغاية كما أن هناك نقصاً بالوثائق مما يشكل عقبة في سبيل من يبحث في هذا الميدان ومن ثم فأن الموضوع قد توارى في غياهب الضبابية الشاملة، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن الباحث يغامر بأن يضل طريقه في تيه مظلم.

ويستطرد المؤلف بقوله: «إن أكثر المواد إثارة هي تلك التي ترقد في ثنايا النصوص العربية التي كتبها المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون في العصور الوسطى. وتعتبر البرديات من أهم الوثائق التي ساهمت إلى حد كبير في معرفتنا بالشؤون البحرية، كما أنها القت ضوءاً ساطعاً على تاريخ مصر البحرية. ومن خلال الوثائق الجديدة وإعادة تقييم للوثائق القديمة، أصبح سبيل الدراسة النقدية ممهداً أمامنا.

«هذا ما قدم به الدكتور علي محمود فهمي لكتابه في نوفمبر عام ١٩٤٨ بمدينة لندن ثم صارت له الترجمة العربية المطروحة على هذه الصفحات في عام ١٩٨١».

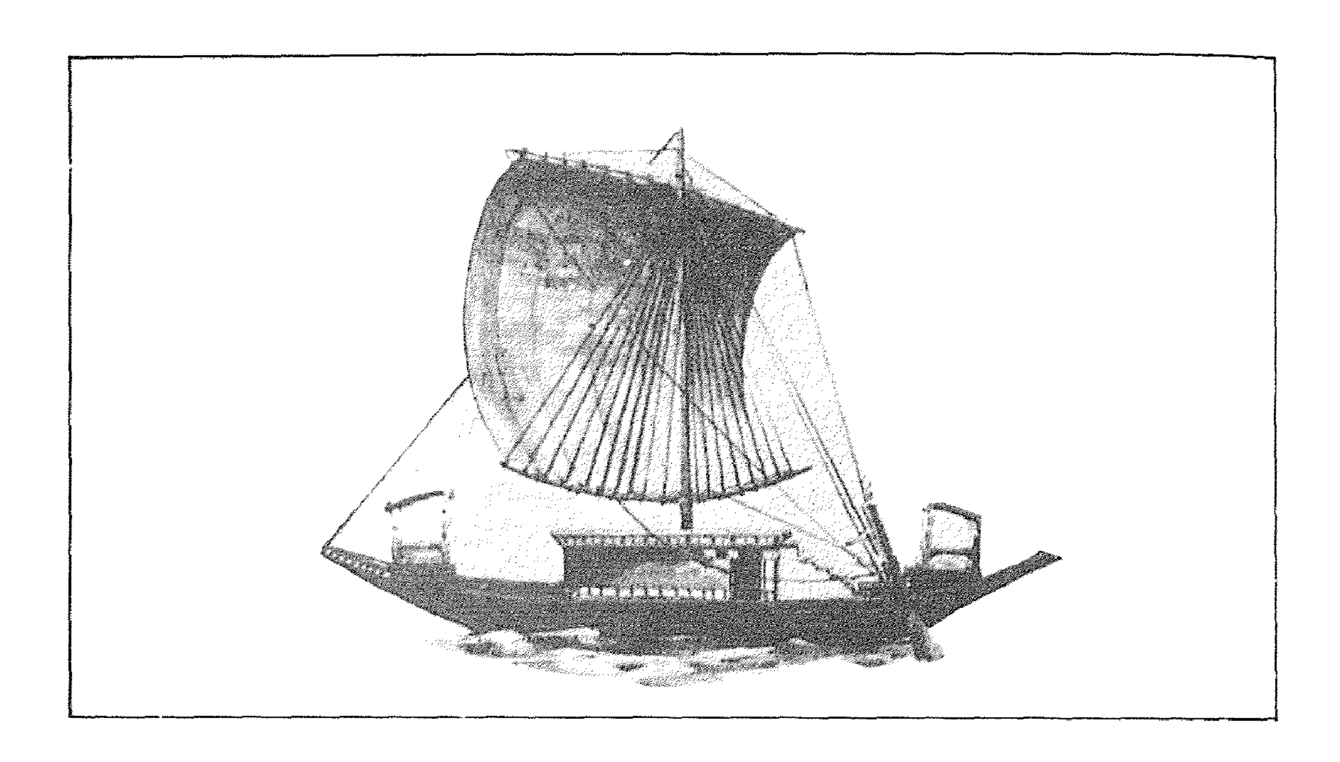
ويسرد المؤلف في مدخل الكتاب مسحاً للمصادر التي استخدمها في دراسته ويأتي على رأسها أوراق البردى وتنقسم إلى نوعين.

(أ) البردي اليوناني ــ الروماني.

(ب) أوارق البردى العربية ومجموعة افروديتو

ثم يشرح قيمة البرديات بوجه عام يليها المصادر التاريخية والجغرافية وغيرها وهو في ذلك يقسمها إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: ومنها الوثائق اليونانية والقبطية وقد كتبها المؤرخ ساويرس ــ أسقف الاشمونين والتقرير الشامل عن الفتح الإسلامي لمصر والمغرب لابن عبد الحكم وهو مصري المولد والإقامة وكتاب «صبح الاعشى» للقلقشندي الذي يعتبر أوسع وأكمل مؤلف من نوعه فهو يعطي معلومات كثيرة عن جزيرة الروضة وتفاصيل عن الإدارة البحرية في عصره. كما يجب أن نذكر أيضاً خطط ابن دقماق التي بقي منها مجلدان وخطط المقريزي ومؤلفات الأسيوطي وسيرة أحمد بن طولون وكتاب الولادة



للكندي وغيرها من المجلدات والمراجع التي يوردها المؤلف في هذه المجموعة. أما المجموعة الثانية فتحتوي على مصدر ثقة رئيسي هو الطبري والذي يعتبر واحداً من أكبر المؤرخين المسلمين ويعتبر كتابه مصدراً أولياً من مصادر المعلومات وكذلك عدة مؤلفات أخرى تقدم المعلومات المشابهة لحولية الطبري مثل كتاب «نشوار المحاضرة» للتنوخي وكتاب «تجارب الأمم» لابن مسكويه، وكتاب «نهاية الارب للنويري».

يأتي بعد ذلك كتابنا المطروح في خمسة فصول وثلاثة ملاحق. الفصل الأول عن دور صناعة السفن والمراكز البحرية في مصر ويستعرض به (ترسانة القلزم وترسانة الاسكندرية والمراكز البحرية في رشيد ودمياط وتنيس ودار الصناعة بجزيرة الروضة) ثم يستطرد في وصف موقع دار الصناعة وهو الإسم الذي كان يطلق على الترسانة ثم وصف الترسانة في عصر الطولونيين ثم الترسانة في زمن الاخشيديين وموقع الترسانة الجديدة الذي أصبح شمال الفسطاط على أنقاض بيت كانت تملكه أرملة ابن طولون وذلك بعد أن هدمت مياه النيل بالتدريج التحصينات التي بناها ابن طولون بجزيرة الروضة.

الفصل الثاني:يتحدث عن دور صناعة السفن والمراكز البحرية في بلاد الشام وأفريقية وكريت ويأتي فيه ذكر معاوية كأول من شجع المسلمين على القيام بالنشاط البحري ويقال أنه سأل عمر بن الخطاب أن يأذن له في قيادة حملة بحرية وقد رفض الخليفة ولم يتجاوز الأمر بتحصين المدن الساحلية ووضع الحاميات بها، وقد أصر معاوية على طلبه حتى سمح له عثمان فيما بعد بقيادة حملة بحرية فيما يقال وزوده بتعليمات تقضي بأن يحتفظ بتعزيزات جاهزة في المناطق الساحلية.

الفصل الثالث: ويستعرض مواد بناء السفن كالخشب وأنواعه فمنها البنج وفيه يقول الكندي «إن جميع أنواع الأشجار كانت موجودة في مصر وكان أكثر الأخشاب قيمة هو ذلك المأخوذ من شجر البنج» وكذلك يوجد السنط وهو نوع ورد ذكره في البرديات التي تتحدث عن بناء السفن فيقول ابن الفقيه عن شجرة السنط باعتبارها إحدى عجائب مصر «إنها جيدة الوقود لأنها لا تخلف رماداً كثيراً». وهناك نوع آخر كخشب الجميز والنخيل وهي للمراكب الكبار كما ورد ذكرها في البرديات ضمن المواد الضرورية المطلوبة لبناء السفن، وأيضاً هناك خشب السدر (النبق) وهو من بين الأنواع الأخرى التي ذكرت

باعتبارها تحمل ثمارا تسمى «النبق».

وينتقل بعد ذلك المؤلف لذكر المعادن التي تدخل ضمن صناعة السفن كالمسامير والروابط والمراسي ففي سفن البحر المتوسط كانت الألواح توصل بمسامير معدنية على حين كانت الواح، سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي تشد إلى بعضها بالحبال، ويقال أن الوالي الأموي الحجاج بنى سفناً من الخشب والمسامير والتغليف على حين كانت الألواح قبل ذلك تربط إلى بعضها بالحبال.

ويتبقى في النهاية ذكر الحبال والتجهيزات الأخرى التي تدخل ضمن صناعة السفن المقدسي «إن مصر قد اشتهرت بالحبال المصنوعة من ليف النخيل، وقد ورد ذكر حبال ليف النخيل في البرديات، كما كانت مصر تنتج نوعاً من القنب يناسب صناعة الحبال وروافع السفن.

ويذكر المؤلف أيضاً أن جوانب السفينة كانت تغطي باللباد أولاً ثم بجلود الثيران المخيطة على شكل ملاءات لحماية السفن من النيران والاصطدام، كما يحدثنا قسطنطين بورفيروجنتوس (Constantine Prohyrogenitus) عن جلود الماعز المستخدمة في السفن البيزنطية كمظلات تقي الركاب الشمس والسهام، كما يشرح كيف كانت الواح السفن تغلف في نهايتها بألياف القطن والشمع وكيف كانت توضع الواح الرصاص في الجزء الغاطس تحت الماء ويقول أن كل مائة وعشرة ألواح أو ألف رطل من الرصاص يكفي عشرين مركباً، وهو ما يعني أن كل سفينة تتطلب مائة وخمسين رطلاً.

الفصل الرابع ويتناول التنظيم البحري فيشرح توزيع الأسطول ويعقد مقارنة بين توزيع الأسطول الإسلامي وتوزيع الأسطول البيزنطي، فمنذ نهاية القرن السادس الميلادي، كانت الامبراطورية البيزنطية قد أهملت القوة البحرية، إلا أن بزوغ القوة البحرية الإسلامية والسياسة العدوانية التي انتهجها معاوية أجبرت القسطنطينية على إعادة تنظيم الأسطول.

ثم يستعرض كيف كان يتم الحفاظ على الأسطول فيشرح النفقات البحرية مما كشفته البرديات عن أن مجمع موارد مصر كانت ترسل إلى بيت المال في الاسكندرية بعد خصم المصروفات المحلية أو ترسل إلى بيت المال في الفسطاط، والأموال اللازمة للأغراض الخاصة، سواء كانت بحرية أو غير ذلك، كانت ترسل مباشرة إلى الموظفين المسؤولين أو عن طريق بيت المال.

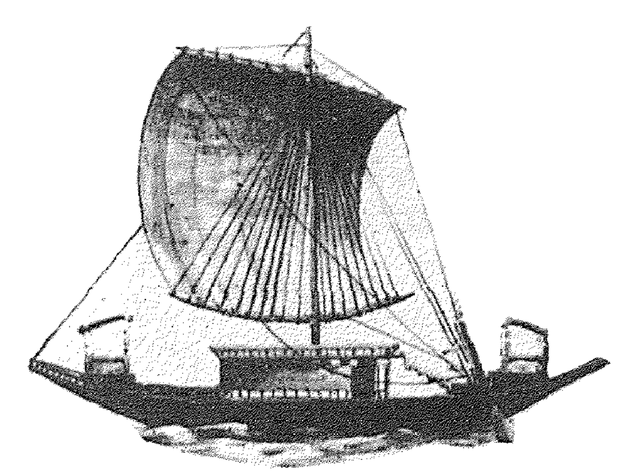
كما يقول ابن خرداذبه بأن تكاليف حملة بحرية واحدة قد وصل إلى مائة الف دينار. كما أن الأرقام المتعلقة بنفقات الأسطول البيزنطي وعملياته يمكن التوصل إليها من خلال المقارنة مع نفقات العمليات البحرية الإسلامية.

يذكر المؤلف بعد ذلك ضرائب الأسطول وأنها فرضت على مصر في الفترة من الخلافة إلى الإدارة البيزنطية ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين رئيسيتين: ضرائب عادية أو عامة، وضرائب غير عادية وتتضمن المجموعة الأولى ضرائب الأموال والغلال المدفوعة عيناً والتي كان جزء منها يرسل إلى شؤون الدولة في الفسطاط سواء للتصدير أو لتوزيعها بين القبائل العربية أو لإعاشة الموظفين الرسميين، أما المجموعة الثانية فكانت تجمع حسب الضرورة، وكان يمكن دفعها نقداً أو عيناً وتتعلق بمسامحات الموظفين أو المستوطنين أو بمؤن العمال والبحارة والمنشآت البحرية والنقل.

ينتقل المؤلف بعد ذلك لموضوع الخدمة المدنية لدى المسلمين وكيف أنها كانت على مستوى عال من التنظيم وكان الإجراء الخاص بالخدمة الشخصية يرتبط أساساً بالإجراء الضريبي ثم يتناول الخدمة المدنية البحرية مما كشفت عنه البرديات من أن الحفاظ على الأسطول كان مسؤولية السكان بأساليب ثلاثة:

دفع الأموال لأغراض محددة، الامداد بالمواد من مختلف الأنواع والامداد بالبحارة، ويبدو أن البحارة في جميع الأساطيل كانوا يجندون عن طريق الطلبات الحكومية الموجهة إلى جميع مناطق مصر وليس من مدن الساحل فقط. كما قد يكون متوقعاً.

وينتقل الحديث إلى البدل النقدي في الخدمة البحرية وتأمين القيام بالخدمة ثم الرجال المقاتلون من المهاجرين والموالي ثم المؤن والطعام وكيف كان يتم امداد الأسطول من كل نوع عن طريق الضرائب وكذلك الأجور وأسعار المؤن



واستعرض أيضاً حالات الهروب من التجنيد الإجباري ــ ونظم الجوازات.

الفصل الخامس: عن السفن الحربية الإسلامية في البحر المتوسط يستعرض خصائص هذه السفن وأنماط السفن الحربية الإسلامية ومعاني كلمات «أسطول ــ قطعة ــ حربي ــ شلندي ــ والأخيرة هذه كانت تطلق على أكبر وأثقل سفينة».

ينتقل بعد ذلك إلى طاقم السفن ومسؤوليات قائد الأسطول وكيف يتم أختيار الرجال ومعاملتهم، فالخليفة ينصح قائد الأسطول أن يفهم قواته تماماً وأن يفهم مؤهلاتهم الخاصة وبأن يظل على اتصال بسفنهم ويجب أن يسير الأمر على الرجال الذين تحت أمرته وأن يسمح لمن لديه شكوى أو حاجة أن يقابله، وعليه هو نفسه أن يكون قائداً قدوة للجنود ولكل من يتخذونه مرشداً، وأن يوجههم ويصحح أخطاءهم بأفضل السبل، ويجب أن يعالج كل حالة في عدل فيعامل المطيع برقة، ويعامل العاصي بقسوة، وعليه أن يدفع لهم أرزاقهم كاملة ودون تأخير.

يتبع هذا وصف واجبات القائد في الإشراف على بناء السفن ومهمة حراسة السفن في موانىء الرسو ــ ثم كيف كانت الخدمة السرية ومنع تسرب المعلومات البحرية.

ويختتم المؤلف كتابه بثلاثة ملاحق عن:

١ ــ الغابات في مصر.

٢ ــ أسماء سفن الأسطول الطولوني مثل العلابيات والحمائم وعشاريات والصنادل وسنابك.

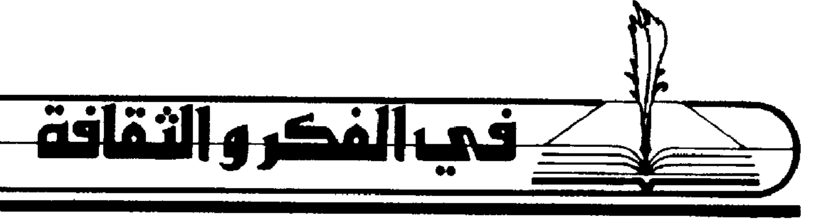
٣ ــ أسماء السفن التي ذكرها المقدسي مثل بركة؛ بوراكيه؛ برعاني؛ الدونيج؛ جبليه؛ جاسوس؛ كارونيه؛ خيطيه؛ معبر؛ مكيه؛ مسبحيه؛ مثلثه؛ رقيه؛ شوق؛ شذا؛ شنكوليه؛ سوقيه؛ تلوى؛ طيره؛ طيار؛ ولجيه؛ واسطيه؛ زبزب؛ زورق.

وينتهي بهذا الكتاب التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من ١٧٧ صفحة استعرض خلالها المؤلف وثائق ومخطوطات أفادت كثيراً في كشف النقاب عن كثير من الغموض في مجال معروفة الشؤون البحرية الإسلامية.



● كونوا وطنيين وعلموا أبناءكم الوطنية، ولا تستمعوا قول الذين يقولون اشتغلوا بدروسكم فقط ولا تشتغلوا بالوطنية. بل اجعلوا الوطنية أسس أعمالكم، وأقبلوا على علومكم فحصلوها فإننا محتاجون للعلم والعلماء. ولكن لا خير في العالم إذا لم يكن وطنياً.

«سعد زغلول»



موت الثقافة

الياس خوري

● يكثر الكلام عن وضعية الثقافة اللبنانية في المرحلة الراهنة. وهو كلام نوستالجي في أغلبه. يستعيد بيروت، ودورها الغارب، وحريتها... وإلى آخره. ويصر على أن لا يرى الواقع الراهن للثقافة اللبنانية، إلا بوصفها لحظة استراحة أو غيبوبة، بانتظار أن تعود المدينة إلى نفسها، وأن تعود الثقافة إلى دورها الطليعي المفترض.

غير أن هذا الكلام الكثير، يغفل عن ملاحظة التغيرات الأساسية التي حصلت، والتي جعلت من ثقافة نظام الطوائف السائدة، ثقافة أخرى، تحمل بعض مواصفات الثقافة السابقة، لكنها تتجه إلى تأسيس نفسها على قاعدة جديدة، معلنة ولادة نمط آخر من الثقافة، وإشكالية أخرى للمثقف ولدوره وللمعنى الاجتماعي لنتاجه.

كيف نحلل هذه الثقافة الجديدة، ونقرأ اتجاهاتها؟

قبل التحليل علينا أن نرى مجموعة من الحقائق:

الحقيقة الأولى، هي خفوت النقاش الفكري ــ الثقافي، أو حتى غيابه. وهذا عائد في الأساس إلى الأزمة الخانقة التي تعانيها الصحافة اللبنانية من جهة، وإلى لا جدوى النقاش، بعد أن تحول لبنان إلى ساحة للتكرار وللميليشيات العسكرية المختلفة.

الحقيقة الثانية، هي موت المسرح اللبناني بشكل لا مثيل له. فالحركة المسرحية اللبنانية لم تعد تجد أمامها سوى «الفودفيل» بأشكاله الأكثر ابتذالاً. وجميع الإنجازات التقنية التي حققها المسرح في الستينات وبداية السبعينات، صارت مجرد أدوات تقنية تستخدم في إعطاء مسرح «الفودفيل» طابعه المسرحي.

الحقيقة الثالثة، وتتجلى في انقراض المجلات الثقافية والإبداعية. بعض المجلات هاجر إلى الخارج: مواقف والكرمل، وبعضها الآخر يعاني أزمة، الآداب.. ولم يبق في الساحة إلا مجلات الفكر التكنوقراطي التي تصلح لكل زمان ومكان.

الحقيقة الرابعة، هي التحول المذهل في الأغنية اللبنانية، فبدائل التجربة الرحبانية، هم اليوم مطربو المطاعم، وفنانو الطبيخ.. الذين تزداد أغنياتهم ازدهاراً، مع ازدهار الإذاعات الخاصة وحاجتها إلى البرامج الخفيفة.

الحقيقة الخامسة، هي ضمور إنتاج الكتاب الإبداعي في لبنان، فبيروت تتحول من ناشر أول إلى مطبعة. والفرق بين النشر والطباعة شاسع.

الحقيقة السادسة، هي انهيار التعليم الجامعي والثانوي والمتوسط والابتدائي. وانهيار التعليم يتحول مع استمرار الحرب، إلى بنية تعليمية جديدة، ميزتها الفصل بين الثقافة والحياة، وتحويل الثقافة إلى لغو ولا معنى.

الحقيقة السابعة، هي الهجرة الكثيفة للمثقفين والصحافيين. وهي هجرة قد تتخذ لنفسها عدة أشكال، الهجرة المباشرة أي الإقامة في الخارج، أو الهجرة غير المباشرة، عبر الكتابة من بيروت إلى صحف ومجلات تصدر في الخارج.

هذه الحقائق، تكشف لنا الوجهة الثقافية الجديدة التي يؤسسها نظام الطوائف المعسكرة. فهذا النظام يعلن عدم حاجته إلى الثقافة، كما يعلن الحرب عليها بطرق مختلفة، تمهيداً لتصفيتها وتحويلها إلى مجرد ملحق إعلامي يقوم «بتدبير» أمور زعماء الطوائف، وقادة عساكرها.

اما الآلية التي تتجسد فيها عملية اجتثاث الثقافة وتصفيتها، فهي آلية بالغة التعقيد.

فهناك تصفية المدن، وتحويل الريف إلى أشباه مدن، وهذا يعني إلغاء الإطار المرجعي الضروري لأي نتاج ثقافي.



وهناك القمــع المباشر أو غير المباشر، وسط عبثية الجنون الطائفي، التي تدفــع بالكتابة إلى حافة اللاجدوى. فينتهي دور المثقف أمام لا عقلانية الواقــع السياسي ــ الاجتماعي، واستحالة معارضته. فهذه الطوائف الجميلة، حتى وهي تتقاتل أو تقتل نفسها، تقوم عملياً بإلغاء وتصفية أية معارضة حقيقية. ومن دون حرية الاعتراض، لا معنى للثقافة، ولا جدوى من الكتابة.

وهناك أخيراً، وهذا هو الموضوع الحقيقي، الإفقار والتجويــع، حتى تصبــح مهنة المثقف مستحيلة، لأن عليه أن يركض وراء الرغيف ليل نهار، وأن يشحذ، فتأتي الضائقة الاقتصادية لتطلق رصاصة الرحمة على أي عمل ثقافي جدي.

تعالوا نقارن مثلاً بين مدخول الأستاذ الجامعي ومدخول السمكري أو الكندرجي أو إلى آخره من المهن. إن أية مقارنة تبدو مضحكة، الجميــع في لبنان يقبضون بالدولار، ما عدا قطاعين: القطاع الثقافي والقطاع العام. الأستاذ والصحافي والكاتب والمسرحي... وإلى آخره... بالإضافة إلى موظفي الدولة، يقبضون بالليرة، بينما يقبض جميع الآخرين بالدولار. وهذا يعني مثلاً أن الأستاذ الجامعي لا يستطيــع إلا بشق النفس، أن يضــع أولاده في المدارس الخاصة. أما الصحافي فهو في وضــع مضحك. إنه يشتغل مهنة تتطلب كل وقته، وفي الوقت نفسه فهو لا يستطيــع أن يعيش، فيتحول إلى وكالة أخبار، وتتحول الكتابة عنده إلى مطية من الخدمات المباشرة أو غير المباشرة. أما القطاع العام، فهو يفرض على موظفيه التحول إلى لصوص وإلا ماتوا جوعاً. أي أن عملية تدهور العملة تصيب في الأساس قطاعين: الثقافة والقطاع العام، بينما استطاعت القطاعات الاقتصادية الأخرى أن تعيد ترتيب أوضاعها على أساس واقــع التضخم.

دلالة هذا الواقــع واضحة لا لبس فيها، فالانهيار يطال مؤسسات الدولة، مما يسهل عملية إلحاقها بقوى الطوائف المعسكرة، كما أنه يطال الثقافة مما يعني تهشيمها وتهميشها، تمهيداً لقتلها والاستغناء عنها.

العام، بما هو جامــع بين اللبنانيين يجري تصفيته، لمصلحة الخاص الطوائفي، المناطقي. وهذا الخاص لا يحتاج إلى ثقافة أو إلى صحافة أو إلى إنتاج فكري. حاجته بسيطة، إنه يحتاج إلى تلفزيون ملون وإلى مجموعة من المثقفين ــ المستشارين، وإلى كلاب من أجل أن تنبــح. هكذا يتم تحويل المثقف إلى شحاذ، تمهيداً لإقناعه بفائدة العواء.

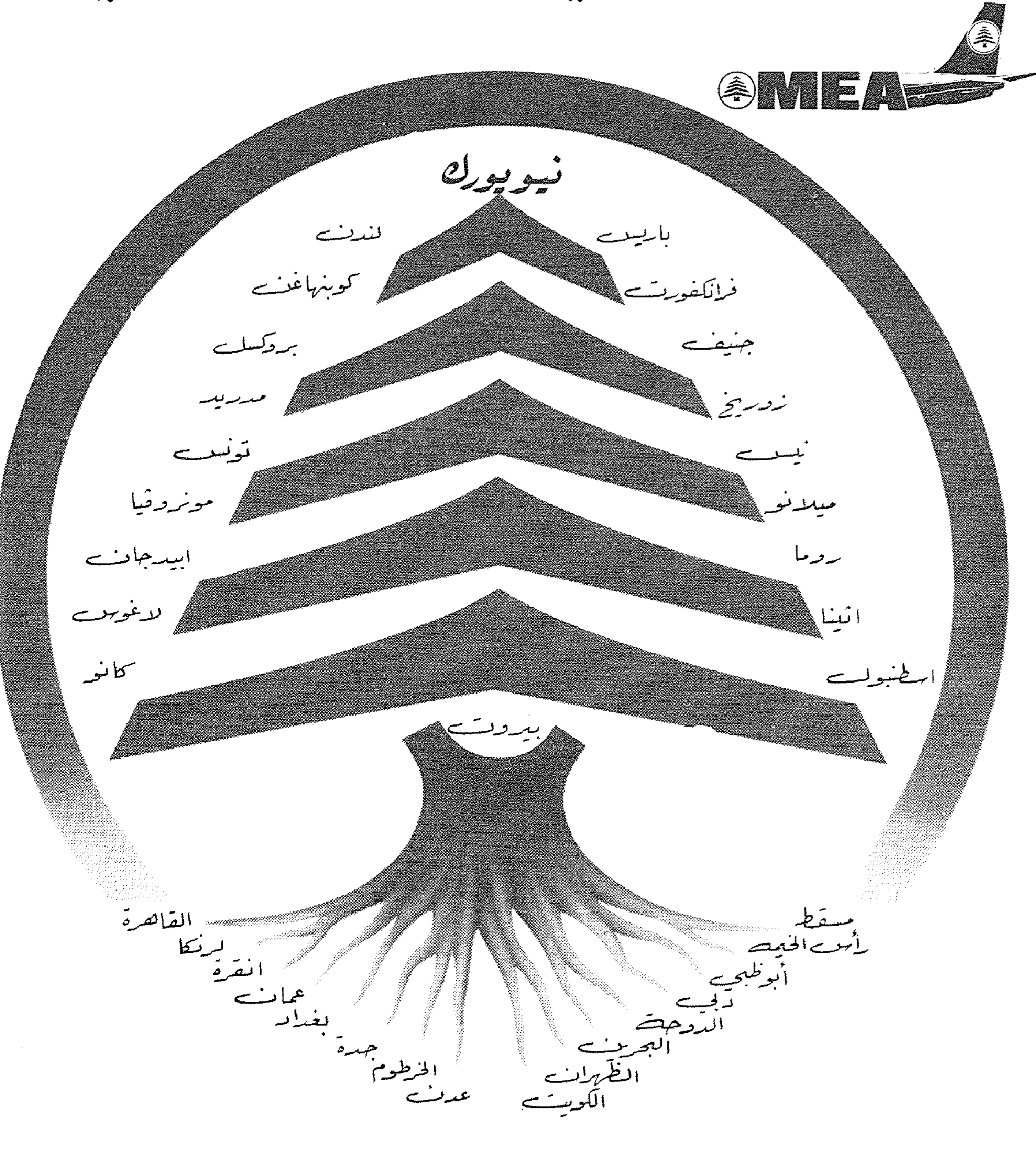
إن ما نشهده اليوم، هو الفصل الأخير من إبادة الثقافة اللبنانية. لم يعد المثقف أو الكاتب يستطيــع أن يعيش. في الماضي، كان يكفي أن تكون كاتباً وتعلم في مدرسة كي تعيش، أما اليوم فعليك أن تعلم في خمس مدارس ولن تعيش.. في الماضي كان يكفي أن تشتغل في جريدة، أما اليوم فعليك أن تشتغل في عدة جرائد، وتأخذ مساعدات ومنحاً وتبقى شحاذاً، وتقتنــع بأن ما تكتبه لم تعد هناك حاجة إليه. الكاتب الذي يحتاجه هذا النظام هو الكاتب الوظيفي، الذي يكتب إعلاناً ويقبض ثمنه، فيفقد كل مصداقية، ويتحول إلى حاجب عند زعماء البنوك أو مدراء العسكر أو شركات الأمراء...

هذا النظام الجديد الذي أرسته الحرب، وتكرسه اليوم أحاديث سلام الكانتونات واللامركزية والتعددية الحضارية، هو الفصل الأخير من عملية تحويل لبنان إلى قاعدة النهب في العالم العربــي. والطوائف الجميلة هي الأداة والقوة والأفق.

لذلك بدلاً من نوستالجيا بيروت الثقافية، علينا أن نرى هذا النظام الجديد، وأن نؤسس لمعارضته، قبل أن تموت المعارضة في جيوب التافهين.

● **عن جريدة «السفير» ١٩٨٩/١/٢١.**

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا





□ صورة جامعة للتراث العربـي في الكويت.